الغربة والاغتراب

عند شعراء مصر المعاصرين

دكتور
أبو بكر إبراهيم لقوشة



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اســم الكتاب : الغربة والاغتراب عند شعراء مصر المعاصرين
المـــــــؤلف : د. أبو بكر إبراهيم لقوشة
رقــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٦

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

الإهداء

إلى اللّتين أحتمي بهما
من حرارة الصيف، ومن برد الشتاء
إلى حبّتي القلب :
نادين ويارا

مقدمة

من أهم الاحتياجات الإنســـانية الملحة التى تدعو الإنســـان إلى ضـــرورة التشـــبع منها، والتشـــبث بها هى حاجة الإنســـان عامة، والشـــاعر على وجه الخصوص إلى الانتماء إلى مجتمع إنسانى معين، والتوطن بداخله، والتواصل معه، والاندماج فيه؛ حتى يحقق الإنسان الأمن والاستقرار لنفسه .

والمجتمع الذى ينشـــأ الشـــاعر فيه ويتعلم ويتشـــبع بقيمه وتقاليده وأعرافه ولغته هو المجتمع الذى يبدو أكثر تهيؤاً لاحتواء الشـــاعر واســـتيعابه، وأية إعاقة تطرأ ويكون من شأنها أن تؤدى إلى عدم تحقيق تلك الاحتياجات، تؤدى إلى مشاعر محبطة تعصف بهذا الشاعر الذى اضطر إلى ترك وطنه.

وهذا ما حدث بالنسبة لعدد من الشعراء المصريين الذين اضطروا تحت ضغوط معينة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية - إلى الاغتراب عن مصر، والرحيل إلى عدد من الدول العربية وغيرها فى شـــتى أركان العالم لفترات تباينت طولاً وقصراً؛ تبعاً لظروف كل شاعر، والدوافع التى أدت إلى رحيله عن مصر، فقد تنوعت بين باحث عن الثروة، أو الحرية، أو فرصة العمل .

هذه الغربة المكانية التى تعرض لها هؤلاء الشـــعراء المصـــريون قد تجاوزت عند كثير منهم أحاسيس الفقد المتعلقة بالأهل والأحباب إلى أحاسيس الفقد المتعلقة بمجتمع واحد يتحدث لغة واحدة ويســـتظل بعادات وســـلوكيات وقيم واحدة متعارف عليها كان يحصل الشاعر من خلالها على تحقيق شكل دائم من أشكال التواصل الإنسانى المنشود .

لذلك فإن هذا الاغتراب المكانى قد أعقبه اغتراب نفســـى راح يعصـــف بنفوس هؤلاء الشعراء الذين فارقوا مجتمعهم ثم ما فتئوا يعلنون في أشعارهم عن المآسي التى تعرضوا لها في مجتمعات الغربة رافضين الحوائل المعيشية التي دفعت بهم إلى هذا الرحيل الذى قذف بهم من رحم المجتمع الأم إلى مجتمعات غريبة عنهم لا يعرفون عنها ما يمكنهم من التواصل معها.

كان من البدهى أن يتسرب الشعور المضني بالاغتراب النفسي إلي هؤلاء الشعراء، وأن يسرى فى قصائدهم حاداً وطاغياً .

ومن ثم تتشـــعب دراســـة آثار الغربة التى تعرض لها هؤلاء الشـــعراء المصـــريون إلى أربعة فصـــول: الإحباط داخل الوطن، وفي أتون الغربة، والشاعر المغترب والصدمة الحضارية، والوجه الصادم للعودة .

الغربة والاغتراب
عند شعراء مصر المعاصرين

الفصل الأول : الإحباط داخل الوطن

عبر عدد من الشــعراء المصــريين المغتربين عن الإحباطات التي تمكنت منهم داخل وطنهم الذى ضــن عليهم بتحقيق طموحاتهم، والتى شــكلت دافعاً قوياً لتركهم مصر، ورحيلهم عنها .

فالشعور بالإحباط لازم الشاعر المصـرى المغترب أحياناً كثيرة؛ خاصـة ذلك الشـاعر الذى أيقن أن اغترابه عن مصـر فرض عليه قسـراً بعد أن رأى اختلال معايير الواقع فى مجريات الحياة المصـرية، وكيف أن وطنه كف عن مد يد العون إليه، وإلى غيره من المثقفين الجادين. بينما ظل الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام مجموعة من المتسلقين والانتهازيين .

وهى مفارقة أشعرتهم باغتراب نفسـي داخل وطنهم، فرأوا من الأولى لهم والأجدر بهم حتى ينأوا بأنفســهم عن هذا التمزق الداخلي الذى يعانونه أن يرحلوا عن مصر التى لم يحظوا فيها بالرعاية والتقدير اللازمين لهم. وقرروا الارتماء فى أحضان مجتمعات جديدة قد يعانون فيها الغربة، لكنهم سيحصلون مقابل تلك المعاناة على عائد مادى أو تقديرى يرضــى طموحات المثقف الذى وقف مجتمعه حائلاً دون إرضاء هذا الطموح عنده.

هذا ما أعلنه عدد من هؤلاء الشعراء دون رمز أو مواربة .

والشــاعر د (كمال نشــأت) كان أحد هؤلاء الشــعراء الذين هاجروا عن مصــــر؛ حيث انتدب «للتدريس بقســم اللغة العربية بكلية آداب الجامعة المســـتنصــــرية ببغداد – العراق عام ١٩٦٩»[(١)]، ورجع «إلى مصـــر عام ١٩٨٤»[(٢)]- قد كشف فى عدد من قصائده عن صدمته، وخيبة أمله فى مصر التى جمعت بين متناقضــــات عدة أشــعلت بداخله شــعوراً حاداً بالضــــياع والاستلاب كان وراء رغبته الملحة فى تحقيق هذا الرحيل .

يقول د. كمال نشأت:

«أواه يا مدينة التاريخ والعمران

يا غابة المآذن

وأزهر القرآن

تعمرك القباب.. والقباب.. والقباب

وليس فيك باب»[(٣)].

---

(١) الشــاعر والتجربة – شــهادات – د محمد عبد المطلب – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣- ص٢٢٨.

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(٣) الأعمال الشعرية – كمال نشأت – ١/ ٤٠٩ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٧ .

ضاقت مصر ببنيها، وضيقت عليهم وأبت أن تستوعبهم. وهو ما دفعهم إلى الرحيل عنها بعيداً. وهنا يضع الشاعر يده على مكمن المأساة فيقول:

«نخرج من دماك مكرهين

لنسفح الشباب

فى المدن الباردة الكئيبة الضباب

والأمل المشبوه

كالماء فى الغربال»[١].

وهذا الإكراه على الرحيل عن مصر، وإهدار طاقة الشباب فى المدن الباردة الكئيبة الضباب – كان قد تمخض عن تناقضات ومفارقات قاسية جداً عاناها الشاعر، ولم يستطع التوافق معها؛ لأنه لم يجد لها مبرراً .

ولذلك كان لابد من الهجرة والرحيل عن ذلك الوطن الذى احترف أكل حقوق مواطنيه، وتنكر للمخلصين والشرفاء من أبنائه، مثلما احترف أيضاً تقدير «المحتال والنهاب والدساس»[٢]. وغيرهم ممن يتميزون بصفات «الذؤبان والجرذان والثعالب»[٣] فى الخسة والانتهاز. يقول الشاعر:

«فكيف يا ولادة الرجال

يقرب المحتال والنهاب والدساس

وبائعوا الشهامه

وفى بلاد الناس

يموت بالحنين والضياع

أبناؤك اليتامى

الشرف العزيز كان قوتهم

وكانت الكرامة

فمن رماهم فوق حمم البركان

طعامهم أحزان

شرابهم أحزان

منامهم أحزان

وفيك ينعم الذؤبان والجرذان والثعالب

بالخير والأمان[٤].

---

(١) المصدر نفسه – ص٤١٠ .

(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(٣) المصدر السابق- ص٤١١ .

(٤) المصدر السابق- ص٤١٠، ٤١١ .

إنها حقيقة واضحة للعيان؛ فهذا التناقض الحاد الذى راح يغشى وجه الحياة فى مصــر، ويتخلل كل تفاصــيلها – ترك آثاره المضــنية على هذا الشــاعر المثقف الذى آلمه أن صــار وطنه – الذى يحتضــنه فى قلبه – إلى هذه الحالة المتردية؛ لذا يتوجه الشاعر إلى مصر مبدياً موطن الداء:

« لك الله

فالناهشون استراحوا

ولم يبق إلا العظام

عليك السلام

يا أمنا المطمئنة للطاعنين

وللناهبين ... وكل اللئام»[1].

كما يغازل الشـاعر أرض مصـر ولكنه غزل اليائس الحزين الذى اضـطر إلى ترك هذه الأرض بعد أن علاها القهر، وعمها الضياع:

«أنا ذرة من ترابك يا مصر

تنأى

وتدمع حين تراك تهيمين

- يا أمنا الكبرياء -

ولا تعرفين الطريق

فالقهر فوق شموخ النخيل استنام»[2].

ويتجاوز الشــاعر ذلك كله إلى حد التنبيه المباشــر إلى مكامن العلة فى هذا الوطن، وتحديد الدواء:

«لن تكون اليوم ما كنت إذا لم

تشهر السيف وتمحو كل من

ينهب من قوت عيالك ..

فالحب سم

والأغانى خناجر

والعدا

بعض رجالك»[3].

إنها حياة صـعبة وتناقضـات جمة، قد عصـفت بنفس هذا الشـاعر، وزلزلت يقينه بوطنه؛ فأشعلت بداخله روح التشتت والفقد ، وكونت لديه دافعاً قوياً ألح عليه بإصــــرار ليترك هذا الوطن الذى خاب فيه مســــعاه، وتبدد فيه رجاؤه، وتبخرت أحلامه .

(١) المصدر السابق- ص٩، ١٠ .
(٢) المصدر السابق- ص٩ .
(٣) المصدر السابق – ص٤١٥، ٤١٦.

لذلك وجدنا من الشاعر هذا الإصرار الصارم على الرحيل الذى نم عن شعور عميق بالإحباط:

«لتمض[1]
فهذا أوان الرحيل
تحجر حلمك فى راحتيك
ودربك يعصف فيه الظلام»
- «وأواه يا مصر
يا بلد الطيبين
إلام السكوت
وفى كل يوم نموت
لتمض»
«ففيم المقام؟
وما كنت إلا الضحية بين نيوب الضباع
ولم يبق فى العمر إلا بقايا
لتمض
فهذا أوان الرحيل
ويا مصر عفوا»

وعلى مسافة قريبة جداً من الشاعر د(كمال نشأت) يقف الشاعر د(محمد أحمد العزب) الذى نجده يحمل من غربته بـــ(المملكة العربية السعودية) على «الساسة النجباء» في بلده مصر، ويحملهم مسئولية أفعال شوهت وجه الحياة فى مصر، وجعلتها أكثر ضيقاً بأبنائها، وتنكراً لهم، ومن ثم تحولت فى النهاية إلى كيان طارد لأبنائه. وهو ما دفع هذا الشاعر وغيره إلى الرحيل عنها:

«شكراً..
(من المنفى) ..
لكل الساسة النجباء ..
فى بلدى المهيضه!!
فالساسة النجباء، فى بلدى، أقول الحق،
مغشولون بالفوضى التى تجتاح أسواق الرقيق،
الهاربين إلى بلاد النفط، والكاسيت، والدولار
والفرص العريضه!!

---

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة (ويا مصر عفواً) قبل سفره إلى العراق للعمل بكلية الآداب – الجامعة المستنصرية – ٤ يناير ١٩٦٩ – السابق هامش ص٢٨ .

ومؤرقون .. (يقال) فى ..
تقنين تشريع (العمولات) التى تسرى (عدالتها)
على الطبال، والزمار، والقراد، والقواد، والهتاف»[١]

إنها إذن مجموعة من التناقضات والمفارقات الساخرة التى شكلت جانباً هاماً من واقع الحياة فى مصر خاصة فترة السبعينيات وما بعدها. وهو واقع مادى ملموس لا يمكن إغفاله أو غض الطرف عن نتائجه المأساوية التي عادت بالسلب على نفسية هذا الشاعر، وعمقت بداخله أحاسيس الضيق بهذا الوطن الذى حمل بداخله تلك التناقضات والمفارقات الحادة التى أدت فى النهاية إلى نبذ هذا الشاعر وغيره ليجد نفسه – مع من كان على شاكلته من أبناء مصر – ملقى بهم فى بلاد يعانون فيها آلام الغربة، ووخزها الممض:

«يامصر..
يا ذات المفاتن، والمآذن، والمداخن، والقباب!!
ها نحن فى المنفى، نعبئ جيبك المقطوع من دمنا ونركض
فى المنافى كالذباب !!
ها نحن نطرد من أبوتنا، (فلا ندرى أيعرفنا إذا عدنا بنونا،
بعد ؟)
ها نحن استرحنا فى التشرد عن ملامحنا (فلا ندرى..
أنعرفنا، ونحن نعود مفقودين)؟
ها نحن انتهينا لليباب!!».

فالشاعر قد وصل إلى قمة الشعور بالاغتراب النفسي ، وبدت عليه أمارات التشاؤم واليأس؛ خاصة وأن الشاعر قد وضع يده بالفعل على مكمن الداء:

«وأنا أقول، معاتباً لحبيبتى: (يامصر، ضيعك احتواؤك
للذين شفاههم يبست على نهديك، واغتالتك كفراً فى
الدروب الكافرة!!»[٢].

كما بدا موقف الشاعر د/ (عبده بدوى) لا يختلف كثيراً عن موقف هذين الشاعرين. لكنه كان أكثر التصاقاً بذاته، وأكثر تحاملاً على هذا الوطن، وأكثر منهما ضيقاً ونفوراً منه؛ وذلك من خلال اتخاذ هذا الشاعر موقفاً تبريرياً ذاتياً قصد من خلاله الكشف عن أسباب رحيله عن مصر. هذا من ناحية. ثم من ناحية أخرى يمكنه هذا الموقف من إسقاط صفات الشر والقسوة والطغيان – بصورة مبالغ فيه – على مصر .

(١) الأعمال الكاملة – د/ محمد أحمد العزب – ط١ – ١٩٩٥م – ١٤١٥هـ ص٢٧٢ .
(٢) المصدر نفسه – ص٢٧٣، ٢٧٤ .

ويتضح ذلك أكثر من قول الشاعر:

«فالشوك كان – وآه منه – من الوطن!»

ومن قوله أيضاً:

«لكنها عجبت وســالت دمعة — من أجل ما لاقيت من هذى المحن
واستدركت:من ذا عنيت بمن طغى — واشتد فى طغيانه قلت: الوطن!»[1]

كما يتحدث الشاعر عن بلاده فيقول:

«لكنها ضيعتنى — فمات صوت رطيب
إن لم يكن ثم ذنب — من أى شىء أتوب»[2]

ويتأكد ذلك أيضاً من قوله كذلك:

«لما تجردت فى نفسى، وأبصرنى — أرد بالراح عنى قادم المحن
رأيت ما لم أكن فى العمر أحسبه — فذلك الطائر الشرير من وطنى»[3]

وغير هذه وتلك من الأمثلة التى وردت فى قصائد أخرى للشاعر التى وصلت فى بعض الأحيان إلى حد الشتم والمبالغة فى إعلان عدم الانتماء لمصر، والبرؤ منها:

«يا مفترسه

يا ذابحة الفقراء

يا قاتلة الشعراء

يا من لم تعشق إلا من يعلوها بالسوط

يا من لم تغلق فى يوم باباً

فى وجه «الفرسان الغرباء»

- «ما كنت بصاحبة الكلمة

فى أيام التاريخ المحتدمه

كنت الهرمه

كنت اللبلابه

والطحلب من فوق الأفكار المنصرمه

والمومس من تحت المصباح الذاهل

برسوم للسياح

عن بيت سفاح

يا صاحبة الرحم الفولاذى الأجوف

(١) ذاته ٣/ ٨٢.
(٢) السابق- ص١١٢.
(٣) السابق – ص٢١٥.

إن المبالغة فى ذم هذا الوطن جد واضحة عند هذا الشاعر الذى لم يجد أى تحرج فى إلقاء عبارات التأنيب واللوم والشتم بكل قسوة فى وجه هذا البلد الذى تجهم فى وجهه، وقسا عليه، وظاهر على إخراجه. وهو ما شكل لدى هذا الشاعر رافداً غزيراً لمد هذا الشعور بالاغتراب النفسي الذى استوطن داخله، وملك عليه زمام نفسه، ومكنه من مجابهة بلده بكل هذا الضيق، وبكل تلك القسوة .

يبدو أن هذا الشاعر قد مر بتجارب مرَة تمخضت عن خيبات أمل قاسية مر بها داخل وطنه، فاشتعلت مشاعر الوحشة بداخل هذا الشاعر الذى لم يجد من وطنه هذا إلا كل قسوة ونكران وجحود. فكان ذلك مدعاة لترك هذا الوطن والرحيل عنه:

«كان لابد من فراق مرير	**لبلاد تفننت فى خروجى**
كنت أرجو هنيهة من هدوء	**بعد عمر قضيته كالزنوج**
ثم إنى – وقد عرفت عنيداً-	**قد بلوت الكفاح فوق السروج**
لم أهدئ من نقمتى نحو قوم	**زرعوا الحقد فى جمال المروج**
واستحالوا مطارقاً تتلظى	**آه من وقعها العنيف اللجوج**
وأرى القوم آذنونى، وباتت	**حول بيتى كتيبة للعلوج**
ما الذى جمع السيوف الضوارى	**حول بيت من البكا، والنشيج؟»**
«كلهم ضالعون فى أمر قتلى	**فإلى القفز فى مياه الخليج»**[1]

والشاعر يكشف جانباً من هذا التضييق الذى تعرض له داخل وطنه، وكون لديه حائطاً قوياً ارتكز عليه، ودفعه إلى الرحيل. وذلك عندما يشير إلى ذلك – نثراً – فيقول:

«فالشيء المؤكد الذى كان وراء خروجى هو إحساسي بالظلم، وشعورى بأننى «ملقى» فى عالم دفعت إليه دفعاً شديداً بعد أن استحال فردوسى إلى جحيم، ولقد كان على لسانى دائماً هذا البيت الذى يقول:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها	ولكن أخلاق الرجال تضيق!»[2]

إنه إذن رحيل قد فرض على هذا الشاعر ومن كان على شاكلته من مثقفى مصر آنذاك .

هذا المبحث تضمن عرضاً لنماذج شعرية لشعراء مصريين معاصرين يعدون جزءاً من شريحة المثقفين الذين فوجئوا بتغير الحال، وتبدل الأوضاع فى بلدهم الذى أصبح مليئاً بالمتناقضات والمفارقات، وضن عليهم بالتقدير المادى، أو الاعتبارى الذى طالما كانوا يطمحون إلى تحقيقه، ومن ثم انتاب هؤلاء الشعراء إحساس بالتمزق النفسي . ومن ثم كانت هجرتهم عن هذا الوطن المحبط إلى مجتمعات غريبة عنهم لعلهم يحققون فى هذه المجتمعات ما عجزوا عن تحقيقه فى وطنهم من أحلام وطموحات .

بيد أن الشعور بمعاناة جديدة كان بانتظارهم فى مجتمعات الغربة. بل ربما كانت هذه المعاناة فى شدتها وضراوتها أقسى وأمر .

(١) السابق ٢/ ٢٩٧- ٢٩٩ .
(٢) نفسه- ص٢٨١ .

الفصل الثاني : في أتون الغربة

إن اغتراب عدد من الشعراء المصريين، ورحيلهم عن مصر لم يكن كله نتيجة تعرضهم لإحباطات وإخفاقات داخل وطنهم، ولكن كان هناك دافع غير معلن وراء هذا الرحيل يتمثل في إغراءات بتحقيق مآرب شخصية كانت جلها أطماعاً مادية (رأى عدد من الشعراء أن فرص تحقيقها أوفر فى مجتمعات الغربة بعيداً عن مصر .

وبالطبع لا تخلو النصوص التي قالها هؤلاء الشعراء من سوق مبررات مثالية نزيهة دفعتهم إلى هذا الرحيل – كما سبق – هذه المبررات قد تكون صادقة، وقد تكون مفتعلة.

لكن ما يعنى البحث – فى المقام الأول – هو استنطاق النصوص التى تبدى تعرض هؤلاء الشعراء لأحاسيس مضنية فى مجتمعات الغربة. وهى أحاسيس متفردة فى قسوتها وحدتها؛ حيث لا نكاد نقترب من هذا الشاعر المغترب حتى نلمس شعوره بالاغتراب النفسي يسرى فى قصائده بيناً. وفى أحيان كثيرة نجده حاداً وطاغياً .

إن الشاعر المغترب قد عانى – خاصة أيام الاغتراب الأولى – من افتقاد الألفة والصحبة والأنس، لأنه يعيش غريباً فى مجتمع جديد يجهله، ويجهل أهله. وهو ما أفقد هؤلاء الشعراء القدرة على التواصل مع هذا المجتمع الجديد، فوقعوا تحت وطأة الإحساس بالوحدة والوحشة الذى أسلمهم بدوره إلى الندم بعد أن تركوا مصر التى أحبطوا فيها، لكنهم لم يكونوا يدركون أنهم على موعد مع إحباطات متعددة راحت تتناوب عليهم فى مجتمعات الغربة .

ومن ثم ظهر الندم على هذا الرحيل، والرغبة الملحة على ضرورة العودة إلى هذا الوطن الذى فارقوه على الرغم من إحباطهم فيه بعد أن أدركوا قيمة وجودهم فيه، ومدى ارتباطهم به، واحتياجهم إليه. وهو ما مثل فى قرارة ضمائرهم رافداً إضافياً آخر من روافد الشعور بالاغتراب النفسي الذي امتلأت به كياناتهم .

من هؤلاء الشعراء د «كمال نشأت» الذى كان قد رحل عن مصر بعد أن ودعها قائلاً:

(ويا مصر عفواً فهذا أوان الرحيل).

منبهاً إلى ما صار إليه الحال من التناقض والزيف والانحلال والخداع .

هكذا رحل الشاعر عن مصر التي شهد فيها وأد أحلامه وطموحاته، فكان رحيله هذا أملاً فى الوصول إلى حالة من التوافق النفسى، والإشباع المادى فى مجتمع آخر جديد .

ولكن. هل حقق الشاعر فى هذا المجتمع الجديد ما يتطلع إليه أم هل تبددت آماله، وخاب مسعاه؟، يقول:

«فى غفوة رأيت رؤيا أيقظت
بالانفعال بدنى
رأيتنى أمشى شوارعاً غريبه
فى بلدة غريبه»
«- أدير عينى لا أرى وجهاً وحيداً أعرفه
أسأل لا يرد أحد سؤال
«ما اسم هذه المدينه ..»
وأشحذ الإجابه
الناس ينظرون.. يعبرون دونما إجابه
ويا لها من نظرة استرابه
أسأل نفسى وأنا أنكر حتى لغتى
كيف أتيت هاهنا..؟»
تحدب السؤال فى فمى
عصفورة مصابه
فتنتفض
فى مقلتى سحابه
حتى إذا استيقظت رعباً بعد حين
وجدتنى أهذى أقول:
ما اسم هذه المدينة
«ما اسم هذه المدينة
وتمطر السحابة...»[١].

إنه كابوس مرعب راح يقض على الشاعر المغترب مضجعه، ويفزع نبضات حياته بعد أن تناوبت عليه الهموم .

هذا الشاعر أفزعه أن يجد نفسه يمشى فى شوارع غريبة فى بلدة هو فيها غريب يفتقد التواصل الإنسانى مع مجموع المحيطين به .

إنها حياة الغربة التى ستولد حالة من الضيق والتبرم فى مجتمع اصطلح على لهجة واحدة قد يستطيع الشاعر أن يتواصل معها – خاصة فى البلاد العربية – بدرجة ما من الصعوبة.

(١) الأعمال الشعرية – كمال نشأت – ١/ ٣٨- ٤٠ .

هذا الشـــعور بعدم تحقيق القدر الكافى من التفاهم مع مجموع المحيطين بالشاعر سيخلق لديه إحساساً حاداً بالوحدة والوحشة:

«إلى أين تمضى
وحيداً كصبارة القبر
وجهك بئر الجفاف وصمت الربابة
وأحزانك المعشبات استطلن
وأصبحن غابه.
إلى أين تمضى»
- «لا من صديق
ولا من ضياء سوى ذبذبات المصابيح
والشقق الدافئات تسلل منهن
عبر النوافذ خيط من الضوء ينبىء
عن آخرين يعيشون جو الحنان
وطعم الموده..
كوباً من الشاى؟. لفظة ود؟... وجلسة
عائلة ما تريد؟ وكيف؟ وأنت
الغريب الجديد على هذه البلدة المستحمة
فى مطر الليل أرملة كفنتها الدموع!»[١].

إنها الوحدة القاسية التى طوت نفس الشاعر على مستكنات موجعة في عالم الغربة، فنمت واسـتطالت وألقت بظلالها الحزينة على حياته بعد أن رحل عن وطنه، واغترب عنه:

«فى الغربة تزدهر الأحزان
وتصبح قوت
يتغير وجه الإنسان
تتغير بصمات الإصبع
تتجعد حتى الضحكات
ومعانى الكلمات
يقول (فلان) مات
وتموت
لأنك تجهل أين تموت..!»[٢].

(١) السابق – ص٤٤٤ – ٤٤٦ .
(٢) السابق – ص٢١، ٢٢ .

إن الشاعر في هذه القصيدة استطاع أن يحدد ملامح الغربة التى تنشب مخالبها القاسية فى أحشائه فلا تتركه إلا وقد صار حطاماً .

واعتماد الشاعر على لفظ (خطاب) والإتيان به منكراً يعكس عدم مبالاة الشاعر، وانكفاءه على الذات؛ إذ أنه لم يتبين من الذى مات، أو كيفية موته، أو درجة قرابته منه، وكل ما لفت انتباه الشاعر، وأثار هواجسه هو أنه (يجهل أين يموت).

لقد وصلت هواجس الغربة بالشاعر إلى حد الموت .

إن هذا الإحساس الحاد بالوحدة والوحشة قد ولد لدى الشاعر شعوراً حاداً بالندم على الرحيل عن مصر، والرغبة الملحة فى ضرورة العودة إليها .

وقد ظهر ذلك فى محاولة الشاعر تجسيد مأساة المغترب كتبرير ضمنى لهذا الندم على الرحيل المفضى بداهة إلى ضرورة تحقيق العودة:

«ليتنا لم نهجر الترب الذى
تهجع فيه الأمهات
هل جنينا غير جرح الروح
والحلم الموات؟»[1].

وفى موضع آخر يقول:

«لماذا نغادر دفء الأحبة
لماذا السفر»
-«تخطفنا طرقات البلاد
وتغدو المطارات أوطاننا
ونقتات هم الغريب
ويصبح أحبابنا ذكريات»
-«لماذا
يكون القدر
فى حياتى
سفر
وعمرى أقضيه
بين المطارات والذكريات
وأين يكون المقر الأخير
إذا هدأت سنوات الهجير..؟»[2].

---

(١) السابق- ص١٦، ١٧ .
(٢) السابق- ص١٨- ٢٠ .

كما يغازل الشـــاعر مصـــر بصـــورة اختلطت فيها مفردات هذا الغزل بأحاسيس هذا الشاعر المغترب اليائس :

«تنوء الدماء بحبك يا مصر
ما كنت أدرى
بهذى العواصف نائمة فى الحنايا
حتى ابتعدت»
- «بالأمس كنت أمام العيون
فأصبحت خلف العيون
وها أنت بين يدى
تطلين
عبر رسوم الخريطة
فتختلط الذكريات
بالأدمع الجاريات
بالبسمات اللقيطة»[1].

وقد يصل الأمر بهذا الشاعر إلى إعلان شعوره باليأس، ولكنه شعور تولد عن رافد جديد تماماً. هو اليأس المتولد من عدم القدرة على تحقيق تلك العودة إلى مصر:

«وارتفعت طائره
ثم صارت على فسحات المدى نقطة
تستطيع الوصول إلى القاهره
وأنا فوق أرض المطار
موثق بالمكان
أمثل صخرية قاهره..!»[2].

هكذا انشبت الغربة أظفارها القاسية الطاحنة في نفس هذا الشاعر إلى الحد الذى وجدناه يصور تلك الآثار فى صورة بركانية رهيبة راحت تزلزل أركان هذا الشاعر، وتفجر الأحزان بداخله:

«فى الغربة
تنبثق الأحزان
أزهاراً بركانية
وأنا فى الغربة بستان»[3].

(١) السابق – ص١٢- ١٤ .
(٢) السابق – ص١٧٨ .
(٣) السابق- ص١٧٦ .

وهاهو ذا الشاعر د/ عبده بدوى يبدو مرهقاً حزيناً ؛ فقد طالت سنوات الغربة به، وتعددت معها محاور معاناته.

وهو يبدأ فى قص مأساته مع الغربة منذ البداية:

«يا مصر.. يا قمراً على الظلماء — يا عقد ماس مسرف الآلاء
يا حضن أم لم يزل متلهفاً — لمواكب الغرباء فى استحياء
قد عشت عمرك غنوة وحديقة — تمتد فى سجادة خضرا
وبكل دار نخلة من حولها — سرب القطا، وقصائد الشعراء»[1]

إن هذا الشاعر قد ترك مصر من سنين بعد أن تناوشته سهام قسوتها ، فوجه إلى مصر أقسى عبارات اللوم والتأنيب التى وصلت فى بعض الأحيان إلى حد الشتم، وها هو ذا يتغزل فيها من غربته ويذكر لها أجمل وأجل مظاهرها ومناظرها الحسية والمعنوية إلى حد وصفه لمصر بـ(الجنة العذراء) التى لم يكن يخطر بباله أبداً أن يتركها أو يرحل عنها:

«قد كان عمر لم تزل أيامه — مخضرة الأوراق رغم شتاء
إن مر وهم من خيال عابر — يوحى بترك الجنة العذراء
رفضته أشواق، وحب غامر — ومسيرة للجذر فى الإرساء»[2]

هكذا كانت تلك «الجنة العذاراء»[3] (مصر) التى كان يتنعم فيها بالحب والحنان والانتماء شفيعاً للشاعر، ودارئه لأى وهم من خيال يخطر بباله داعياً إياه إلى ترك مصر (تلك الجنة العذراء).

ولكن هذا الاطمئنان والسلام النفسى لم يدم طويلاً؛ فقد جدت أحداث وظروف صعبة جرتها أزمان موصومة بالقسوة والترويع والرعونة عملت على إبعاد هذا الشاعر عن مصر؛ ليجد نفسه منبوذاً وحيداً فى عالم الغربة الموحش الكئيب:

«لكن أزماناً تجئ مريرة — قد بالغت فى القسوة الرعناء
فالقحط دب، ولم تجد عصفورة — ما تستطيع به بلوغ فضاء
هى روعتنا حين قالت غادروا — فغداً يكون تفرق القرناء»[4]

أشار الشاعر إلى الأسباب التى دفعته إلى ترك وطنه، كما ألمح فى طيات ذلك إلى ما عاناه فى هذا الرحيل من تقطع قلبه، وتحطم معنوياته، فبات رفيق الهموم والتأوه والبكاء.

كما قامت (كيف) فى قول الشاعر (كيف السلو) بدور تعجبى أسهم فى تبيان مدى ارتباطه بحبيبته (مصر) التى لم تنسه سنوات غربته الطويلة ذكرياتها وأيامها الجميلة. وهو ما سيجعل الشاعر أكثر عرضة لمشاعر الندم المتولدة عن الشعور الحاد بالافتقاد التى أزجتها إليه مقارنة نفسية بين جوانح هذا الشاعر الذى تغرب عن وطنه الذى يمثل له جنة جميلة يحصل فيها على الحب والحنان والتواصل، وبين عالم الغربة المترع بالهم والوحدة وانقطاع التواصل.

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى – ٣/ ٧٢ .
(٢) السابق – ص٧٤ .
(٣) انظر المصدر السابق الصفحة نفسها .
(٤) السابق نفسه والصفحة نفسها .

إنها مقارنة تستحق أن تشعل بداخل الشاعر ملامح الاغتراب النفسي ، ويتضح ذلك أكثر عندما ننظر إلى قصائد أخرى للشاعر نفسه استعمل فيها أسلوب (المنولوج الداخلى) للإلماح إلى تلك الحرب النفسية التى دارت رحاها بداخله، فراحت تعصف به عندما حان أوان الغربة والرحيل:

«لما قالوا: إن الغربة
صارت قدراً مكتوباً فى هذا العصر
أعددت متاعى
هيأت ضياعى
والحزن القادم فى أيام الأسر
وقفت حزيناً مرتجفاً أتلو من قول الله
«والعصر
إن الإنسان لفى خسر!»
فأنا من بعد قليل سوف أرى
عطشان.. لأنى جاوزت النهر
وأنا من بعد قليل تلفحنى
نار.. فأنا أنكرت حقول الزهر
وأنا لن ترجع أشلائى أبداً»
- «.. فأنا من بعد قليل سوف أتوه»[1].

ومن قصيدة أخرى نستمع إلى الشاعر وهو يقول:

«ولما علونا فى السحاب تداخلت … غيوم وصارت كالهباء العمائر
وأصبحت وحدى فى الضباب معلقاً … كما علق المذبوح فى الجو جاذر
حزنت.. فقد ضاعت بلادى بناظرى … وسال على الخدين دمع مهاجر
وقلت «أيضحى كل شىء مبددا … فأين أغاريدى؟ وأين القياثر؟»[2]

كما تلوح أيضاً فى إطار تلك المقارنات النفسية هواجس الوحدة والوحشة والتفرد؛ لتنقض على مخيلة الشاعر المغترب :

«.. آه لن يمسح إنسان دمعى
وأنا أتهاوى فى خوفى
وأحس القهر!»[3].

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى- ٢/ ٢٥٢، ٢٥٣ .
(٢) الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى- ٣/ ١٤٤ .
(٣) السابق – ٢/ ٢٥٤ .

إن هذه المقارنات النفسية المضنية لم تكن مقتصرة على مراحل الإقدام على الغربة، والتهيؤ لها. بل إنها قد لازمت الشاعر، وتناوبت عليه فى غربته أيضاً، ولكن هذه المرة كان الشاعر قد انتقل بالفعل إلي مرحلة ممارسة الغربة، وخبر مآسيها. فعرف الفارق الشاسع بين ما كان يقوله ويعلمه للصبية فى أرضه من ضرورة التمسك بالتفاؤل والصمود، وبين ما خبره وتعلمه بعد أن فعلت به الغربة ما فعلت، وتركته نهباً لليأس والتشتت والضياع :

«فى أراضى .. أذكر أحياناً للصبيه
حتى لا يخطفهم شرطى، أو سفاح، أو غول
ولنفسى أحياناً فأنا أهرب من نفسى.. فأقول
«.. إن ضعتم يا أحبابى فى الليل الموصول
فهنالك ألف هلال يرشدكم بمدينتكم
ويناغمكم فى مئذنة بعد الأخرى
ويضئ لكم كل المجهول»[١].
-«لكنى لما هاجرت
لما طوفت كثيراً، ثم هدأت بقرب المجهول
فى عرض الأرض وعند الطول
ألقانى أعجز عند العودة «للنزل» المأهول
لا أعرف أين أقمت
فالغربة عمر مقتول
أرض من غير فصول
دنيا من غير وصول»
-«فقلت »خلوا سبيلى لا أبالكموا»
قالوا «ستقتل»
قلت «القتل مأمول»[٢].

ولكن شتان بين موقف الشاعر المتغزل (كعب بن زهير) الذى يتأمل قتلاً أو موتاً – صورياً بالطبع – إرضاء لحبيبته وإعلاناً عن استعداده للتضحية من أجلها، وبين موقف شاعرنا المعاصر «عبده بدوى» الذى هرسته الغربة، وطحنت كل أمارات النضارة والحيوية من حياته، فتمنى القتل والموت للخلاص من جحيم الغربة الذى يعيشه ويعانى فيه الوحدة وانعدام الأنس والتواصل. وهى إحدى مخلفات الغربة القاسية التى لم يستطع هذا الشاعر المغترب أن يفلت من شراكها، أو التخلص من آثارها المضنية .

(١) السابق – ص١٧٢.
(٢) السابق نفسه – ص١٧٢- ١٧٤ .

وهنا لابد من إثارة هذا التساؤل: هل يكفي ما ستقدمه الغربة من ثمن يستحق أن يضحي الشاعر من أجله بترك وطنه، ومعاناة كل هذا الكبد الذى سيلاقيه فى غربته ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل لابد أولاً من الإلماح إلى أن هذا الشاعر كان قد عقد الكثير من الطموحات والآمال التي أراد لها أن تتحقق فى عالم الغربة. وهو ما شكل لديه حائطاً قوياً مكنه من الاندفاع والإصرار على خوض تجربة الرحيل وذلك على الرغم من محاولة المحيطين به إثناءه عنه:

«قد قالوا- فى همس – قبل الرحله
لما وجهت الوجهة نحو القبله
ودخلت – وقلبى مرتجف – فى قلب الصف
مكسور الأنف
«.. إن الإنسان الضيف
لن يدركه فى غربته إلا الحيف
وجنون الصيف
وبكاء الحرف
وسؤال مقرور خانق
عن «أين؟» و«كيف؟»
فإذا ما استروح من تعب كان السيف
الآتى غدراً من خلف!»
«ولقد قالوا – فيما قالوا - .. إنى بعت النهر الرفاف
والخضرة تومض فى الصفصاف
والنخل يوشى كل الأطراف»
- «حتى من كانت كعبة عمره
قد غادرها من غير طواف
.. حتى الزمن الحلو الشفاف
ما دار عليه، وناح، وخاف»[1].

ولكن هل أنصت لهذه الأصوات التي استدعت كل الحيل لرده عن فكرة الرحيل؟ إن هذا الشاعر لم يكن ليأبه أو يلتفت كثيراً إلى تلك الأصوات. بل إنه قد عقد العزم بعد أن آثر الانصياع إلى أمر نفسه التى كانت مدفوعة بآمال الهجرة والرحيل.

(١) السابق – ص٣٥٤، ٣٥٥ .

ومن ثم خاض الشـــاعر غمار هذا الرحيل ممتشــقاً حلمه وعزمه (وجواز مروره) كزاد ظنه لا ينفد فى هذا الرحيل الطويل:

«لكن يصغى لنقاء يبدو حلما

.. وبقلب مملتئ عزما

يخطو. يمشى مهموماً جهما

فى راحته ورق، ما أكثر ما يرمى

فى جبهته نور قد أوشك أن يدمى

وبقايا من أمل مرسوم رسماً

وجواز مرور قد أخذته الرعشة وهو يقدمه للشرطى العابس

من خلف جهاز التفتيش البائس»[١].

إن تلك الرحلة التى كان الشاعر قد عقد العزم على خوض غمارها وتحمل مشاقها أملاً فى تحقيق طموحه وأمنياته – قد باءت بالفشل بعد أن تأكد له فى نهاية رحلته أنه لم يحصل منها إلا على وهم محض:

«.. لكنى لم أبصر إلا وهماً

والدنيا قد ملئت غيماً

والقادم سار، وما أومأ!!»[٢].

ضـــاعت إذن آمال الشـــاعر، وطموحاته التى عقدها على تلك الرحلة التى أضـــاع فيها عمره مرهقاً حزيناً ؛ من كثرة المعاناة التى تعرض لها أثناء غربته:

«وأخيراً ما بين الفرح الباكى بين البذره

والحزن المائل من عمرى مثل الزهره

لم أعرف أملي من يأسي

لم أعرف بيتى من رمسى

لم أعرف يومى من أمسى

.. لم أعرف إلا أنى قد ضيعت المرفأ والبيت

لم أعرف إلا أنى فى غمره ما ألقاه بكيت

وبأنى فى حزن أتهيأ- واخوفى – للموت!»[٣].

فإذا كان الشـاعر (كمال نشـأت) قد تناوبت عليه فى غربته هواجس الموت ممثلة فى أين ومتى سـيكون هذا الموت؟ فإن الشــاعر (عبده بدوى) قد تجاوز ذلك إلى حد مواجهة الموت، واســـتحضـــاره والتهيؤله على الرغم من خوفه منه.

---

(١) السابق – ص٣٥٨، ٣٥٩ .
(٢) السابق – ص٣٦٠ .
(٣) السابق – ص٣٧٣ .

ويلاحظ إصرار الشاعر على تكراره صيغة (لم أعرف) الذى شمل نفى المعرفة بمجموعة من المسلمات البدهية التى لا تختلط أو تتشابه فى ذهن إنسان إلا إذا كان قد وصل إلى درجة من التخبط والضياع تؤهله إلى حالة فقدان توازنه النفسى، وتؤكد على وجود شعور حاد بالفقد عاناه الشاعر، وبدا عليه كذلك فى أثناء غربته حتى وصل به فى النهاية إلى الوقوف على حافة الموت .

وتتردد كذلك أصداء الغربة، وما تخلفه من أشجان فى شعر «عبد المنعم عواد يوسف» الذى رحل كذلك عن مصر منذ أوائل السبعينيات، واغترب طوال «عقدين من الزمن فى دولة الإمارات العربية المتحدة، ثم اغترب نحو ثلاثة أعوام فى المملكة العربية السعودية»[1].

والشاعر يحدثنا عن دواعى رحيله عن مصر، فيقول: «ثم كانت النكسة التى صدمت النفوس، وكسرت القلوب، فكان فرار كثير من المبدعين من واقع الهزيمة العسكرية المر إلى خارج مصر، لعلهم يعيدون هناك توازنهم النفسى، وكنت مع الخارجين، فشددت الرحال إلى دولة الإمارات العربية، وفيها عشت ما يزيد عن العشرين عاماً»[2].

وأياً ما كان دافع الشاعر الذى وقف به وراء هذا الرحيل، فقد خلفت الغربة فى شعره أصداء مرة تشف عما لحق به من الأسى.

وقصائده تشهد على مدى شعوره المضني بالاغتراب الذى منيت به نفسه بعد ممارسته حياة الغربة، وقد تمثل هذا الشعور أكثر ما تمثل فى قصائده التى أعلن فيها ندمه وإدانته هذا الرحيل. وهى إدانة لم يستثن الشاعر منها أحداً من أبناء وطنه الذين تركوا الوطن، ورحلوا عنه؛ جرياً وراء أطماعهم تاركين هذا الوطن نهباً للناهشين من كل صوب، يقول الشاعر:

«مدان أنا مثلما كلكم مدانون، ليس بريئاً أحد..

تركناك يا وطنى، وانطلقنا ..

وراء الدراهم، نحسب أنا سنجمع تبراً، ألا ليت شعرى. ومالا لبد..

ومر الزمان، وشيئاً فشيئاً..

نسينا البلادا ..

استحلنا جمادا ..

دمى لا تحس، نسينا الديار، تركنا البلد ..

ألا فاخرجوا من جلود البراءة، ما فيكم من برئ، أجل لست أعفى أحد»[3]

إنها الغربة ذاتها التى تولد الانكفاء على الذات، والتقوقع بداخلها؛ نتيجة الإحساس بالوحدة النفسية التى تنبع من انعدام التواصل مع الآخرين ولا يكاد الإنسان المغترب ينتبه إلى آثارها المدمرة إلا بعد أن تكون قد أيبست ما بداخله، وأحالته جماداً – «دمى لا تحس»- لا يلتفت ولا يهتم إلى أمر غيره .

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبد المنعم عواد يوسف – ٢/ ١٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١.
(٢) الشاعر والتجربة (شهادات)- د. محمد عبد المطلب – ص١٨٩ .
(٣) الأعمال الكاملة للشاعر عبد المنعم عواد يوسف – ٢/ ٤٩٠ .

وقد بدا هذا المعنى واضحاً فى قصيدة أخرى للشاعر؛ حيث تخيل «شيخه نصر الدين» أتى إليه فى الغربة، وأوصاه بعدة وصايا، منها:

«وفى الغربة، لا تشغل بأمر الناس أفكارك،

«وكن نفسك..

«حذار، حذار أن تنصر مظلوماً على ظالم

«ففى الغربة، لا ندرى، من المظلوم والظالم

«فكن نفسك، والزم دائماً دارك»[١].

والشـــاعر يعود مرة أخرى ليؤكد ندمه على هذا الرحيل محاولاً من خلال ذلك رسم قسوة الملامح التى تركتها سنوات الغربة على نفسه. وهو فى هذه المرة سيكون أكثر التصاقاً بذاته؛ وذلك من خلال استخدامه ضمير المتكلم المفرد :

«وقالوا: «تعلمت من خوضك البحر».

لا، ما تعلمت غير الندم

وقالوا: «وحزت الكنوز الكبار»،

وما حزت غير الأسى والألم..

وقالوا: «ومن يجتز البحر يرجع بدر البحار»

أنا اجتزته

وما عدت أحمل غير خواء المحار

أقول لكم:

تغربت حتى نسيت ملامح وجهى القديم..

تغربت حتى نسـيت اسـم أمى، واسـم أبى، وأهلى وكل الأحباء والأصدقاء

وحتى حبيبة روحى التى ذات يوم أضاءت حياتى بأبهى ضياء

نسيت اسمها

وما عدت أذكر غير التغرب عبر البحار

طوال الليالى، وطول النهار

فيومى عذاب، وليلى سهاد»[٢].

إن الشاعر يعلن فى قصيدته هذه أن غربته الطويلة عن مصر كانت رحلة مخيبة لكل آماله وطموحاته؛ فهو لم يحز فى تلك الرحلة (الكنوز الكبار)، ولم يرجع منها (بدر البحار)، فهو لم يذق فيها غير طعم الندم والأســى والألم والخواء.

---

(١) ذاته – ١/ ٦٥ .
(٢) السابق ١/ ١١١، ١١٢ .

لقد تغرب هذا الشاعر، وطالت سنوات غربته حتى نسى ملامح وجهه القديم، ونسى اسم أمه وأبيه. كما نسى أيضاً أهله وأحبابه وأصدقاءه. حتى إنه نسى كذلك اسم حبيبة روحه الوحيدة التى أضاءت حياته ذات يوم .

إن طول فترة اغتراب الشاعر قد أصابت ذاكرته بالضمور، فأكسبته داء النسيان، حتى إن الشوق قد دفعه ذات مرة إلى أن يكتب رسالة من الغربة لأحد أحبابه، ولكنه بعد أن شرع فى كتابة رسالته توقف ولم يكملها ؛ لأنه - وبكل أسى - كان قد نسى العنوان:

«لما أرقنى الشوق إليه

قلت أكفكف من سورة وجدى بالكلمات

فجلست أخط إليه رساله

أودعت الورق حنينى كله

فارتاحت نفسى

لكنى حين شرعت أفكر فى العنوان

وا أسفاه !!

أدركت بأنى لا أتذكر

فالعنوان

قد مسحته يد النسيان

فرجعت، وقد أرقنى الشوق إليه

وأمامى تشتعل الأوراق!»[1].

هذا إذن ما فعلته الغربة بالشاعر، ويالها من كلفة باهظة! كان لزاماً على الشاعر المغترب أن يتحملها مكرهاً مادام أنه قد اختار طريق السفر والرحيل عن موطنه. ومن ثم نستمع إلى هذا التأوه الضارع الذى يحمل بين طياته أحاسيس الفقد والاستلاب التى لا تحد :

«آه، يا بلدى، يا بلدى.

والغربة تدفعنى دفعاً، يا بلدى آه .

أكلتنى الغربة يا ولداه.

وأنا سواح، أتنقل، أتغرب فى أرض الله

صدرى بركان، أتلهب فى حر لظاه.

شوقى إعصار لا يدرى مخلوق فى الكون مداه»[2].

(١) السابق- ص٤٨٥، ٤٨٦ .
(٢) السابق – ٢/ ١٩٣ .

إن الشاعر يرص العديد والعديد من محاور وأمارات الإحباط التى تعرض لها، وبدت عليه فى مجتمع الغربة، ويصفها بعضها إلى جوار بعض؛ لتكون حائطاً يمثل مقدمة منطقية تصلح تماماً أن يرتكز عليها الشاعر فى إعلان رغبته الملحة، وتمنيه العودة إلى أرض مصر. ولكن ما يلفت الانتباه أن تلك الأمنية قد ساقها الشاعر هى الأخرى فى صورة يائسة . وكأنها توحى باستحالة تحقيق تلك العودة:

«لكن الأقدار رمتنى فى بحر الغربة؛ كالريشة.

هل طير يقرضنى ريشة.

لأطير بأجنحة النشوة.

وأحط بأحضان بلادى»[1].

هكذا تولدت لدى هذا الشاعر مشاعر الندم على تركه مصر بعد أن قام بمغازلتها، وتمنى العودة إليها – كما فعل شعراء آخرون – وكان العجز نصيبه أيضاً فى محاولته العودة إلى مصر:

«كل ماحولى سراب.

والطيور العائدة.

مسرعات تنشد الدفء هناك.

بين أحضان أليف يترقب.

وأنا .

ثابت الخطو مكبل»[2].

وإذن فقد أيقن الشاعر أنه فى غربته تلك قد خاض رحله عبثية لم يجن من ورائها ما كان يؤمله ويصبو إلى تحقيقه بعد أن سلبته سنوات الغربة كل ما كان قد عقده من آمال على تلك الهجرة الطويلة .

وهنا لابد من تسجيل أن الشاعر د(عبده بدوى) حين خاض غمار رحلته المضنية التى لم يجن من ورائه «إلا الوهم» كان مدفوعاً بتحفيزه لنفسه، وعدم استماعه إلى من أرادو إثناءه عن الرحيل. وذلك على العكس تماماً مما بدا عند الشاعر (عبد المنعم عواد يوسف) الذى بدا فى صورة من خدع وغرر به ثم أفاق من غفلته تلك. ولكن بعد فوات الأوان:

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبد المنعم عواد يوسف ـ٢/ ١٩٥ .
(٢) السابق ص٢٠٨ .

«وقال الناس لى سافر، ففى الأسفار سبع فوائد
سافرت ..
أى فوائد سبع ؟
أقول لكم..
لقد كانت إذن خدعة!!
لقد عدنا من الأسفار لم نغنم سوى الأسقام واللوعة!!
«وقال الناس لى: سافر، تزد عمراً..
يجدد نفسه الإنسان بالأسفار..
فسافرنا ...
وكان الموت بالمرصاد..
آلاف من المرات متناها بلا معنى ..
ألا أقبح به موتاً، يكون لغير ما سبب..
كأتفه ما يكون المرء حين يموت مغترباً، بلا معنى ..
وعدنا، قد فقدنا العمر، حتى لم نعد نحيا
نسير وقد حملنا فى مطاوى صدرنا قبرا..
وكانت خدعة أخرى»[1].

وهكذا كانت هجرة هذا الشاعر عن مصر مثيرة لمشاعر التمزق النفسي لديه على الأصعدة كافة؛ فبعد أن عانى فى تلك الرحلة أحاسيس الغربة المرة التى كادت تفتك به يعود منها وهو يحمل بين حناياه اليأس واللوعة، وتعتريه الأسقام .

أما الشاعر (أحمد عبد المعطي حجازى) فقد انهارت معنوياته فى «منفاه الاختيارى»[2]- باريس – التى رحل إليها مع أوائل سبعينيات القرن العشرين؛ حيث ازداد فى تلك الحقبة اضطهاد السلطة الحاكمة فى مصر لعدد من المثقفين الذين كانوا لا يزالون علي ولائهم للعهد الناصرى. ومن ثم كانت آراؤهم وأفكارهم تتصادم مع رؤية السلطة القائمة بكل توجهاتها الجديدة. وهو صدام ولد نوعاً من الصراع غير المتكافئ بين هؤلاء المثقفين، وبين رجال السلطة الحاكمة فى مصر آنذاك. فكان نتيجة تلك الظروف السياسية الضاغطة أن اضطر عدد من هؤلاء المثقفين إلى أن يهاجروا خارج مصر. وقد مثل ذلك ظاهرة «بدأت مع أوائل السبعينيات وهى هجرة المثقفين والمبدعين المصريين إلى المنفى الاختيارى/ الإجبارى بسبب تعنت السلطة»[3]

(١) انظر السابق ١/ ١٠٧- ١١٠ .
(٢) مملكة أحمد عبد المعطى حجازى الشعرية – دراسات ومقالات حول تجربة الشاعر الرائد – تحرير وتقديم – حسن طلب – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٦- ص١٩ .
(٣) صورة الدم فى شعر أمل دنقل – مصادرها – قضاياه. ملامحها الفنية- ط١ دار المعارف ١٩٩٥م- ص١٩٩.

«وقد كان أحمد حجازى أحد أدباء وفنانى الرفض المصريين الذين عجزوا عن التعايش مع هزيمة ١٩٦٧ ثم مع نظام الرئيس السادات قبل حرب أكتوبر، وعجز نظام الرئيس السادات عن التعايش معهم قبل حرب أكتوبر، فشتت لجنة النظام فى الاتحاد الاشتراكى ١٠٤ كاتبا وفنانا»[١].

كما يشير الشاعر (أحمد عبد المعطي حجازى) نفسه إلى أن هذا المناخ القاسى الكاتم للأنفاس كان السبب الذى وقف وراء رحيله هو وغيره من المثقفين عن مصر؛ حيث يشير إلى أن المناخ الثقافي فى مصر «بداية من السبعينيات» كان قد تكون «نتيجة انقلاب كامل فى الحياة المصرية وكان الحصاد شقياً وهجرة واسعة للمثقفين المصريين. فمصر أصبحت طاردة لمثقفيها، هذا الخروج أدى إلى خلخلة الحياة الثقافية فى مصر خاصة بعد تولي المسئولية (يوسف السباعى) و(عبد القادر حاتم) ولم تكن علاقتهما بالمثقفين طيبة حتى إن المثقفين

الذين ظلوا بمصر ولم يهاجروا لم يسلموا من اتهامات الأجيال الجديدة إذ كانوا مضطرين للعمل فى إطار المؤسسات الموجودة»[٢]. «هذا الخلل فى الحياة الثقافية لم يؤد فقط إلى هجرة جيل وعزلة جيل جديد وإنما كانت له نتائج فاجعة»[٣].

ولنقف بعيداً عن النتائج الفاجعة التي تمخضت عن هذا الخلل في الحياة الثقافية فى مصر؛ لنتواصل ونلتحم أكثر مع هذا الشاعر – أحمد عبد المعطى حجازى- الذى امتدت غربته عن مصر، وطالت. «ورغم المصالحة الأولى فى أكتوبر ١٩٧٣، ظل الشاعر أحمد حجازى حائراً حيرة كبرى، فاختار الحياة فى منفاه الاختيارى إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً»[٤].

وعند تناول الإحباطات التى تناوبت على هذا الشاعر فى مجتمع الغربة لابد أن يلفت انتباهنا هذا التساؤل: إذا كان هذا الشاعر قد شعر بالغربة والضياع بمجرد رحيله من قريته إلى مدينة القاهرة، فما بالنا بهذا الشاعر وكيف سيكون حاله في هجرته البعيدة تلك إلى باريس؟ وهل يمكن أن نقول إنه قد تم بالفعل إذكاء هذا الشعور بالاغتراب النفسي بداخل هذا الشاعر فى أثناء غربته من جراء إحساسه بالوحدة والوحشة والانكفاء القسرى على الذات والتقوقع بداخلها ؟

(١) مملكة أحمد عبد المعطى حجازى الشعرية – حسن طلب – ص١٩ .
(٢) أحمد عبد المعطي حجازى – عن الأهرام العربى المصرية – السبت ٢٥ أغسطس-٢٠٠١. العدد ١٢٣.
(٣) السابق نفسه .
(٤) مملكة أحمد عبد المعطى حجازى الشعرية – حسن طلب – ص١٩، ٢٠ .

الحق أن الأمر كان كذلك وهذا ما تؤكده قصيدة «أسرار» التى أهداها إلى جرحى العرب الذين صادفهم «فى شوارع باريس»[1] والذين توجه إليهم بقوله:

«آه !

ها أنتم تكشفون لى السر وحدي»

- «هل رأيتم دمى يتشمم فيكم صباه.

لمحتم منازلكم تحت جلدى

فكشفتم أمامى ما تسترون ؟

وكنتم تسيرون سرباً جميلاً غريباً

يراوغ كل النداءات

يخفى وراء تهدل ألوانه

دمعه الغائر المتجمد»[2].

إن الشاعر قد حرص على استعمال ضمير المخاطب وكأنى به يحاول من خلال هذا الضمير التحايل على أحاسيس الوحدة والوحشة التى تفردت به فى غربته لعله يهرب من آثارها المضنية على نفسه عندما يعقد محاورات خطابية تقوم فى أساسها على الإرسال والتلقي والرد مع هؤلاء الجرحى العرب الذين يحملون بين جوانحهم رائحة الوطن الذى فارقه الشاعر، وكأننا بالشاعر يستعطفهم ويتوسل إليهم ويسألهم الإبطاء فى السير ليؤنسوه فى وحدته. ومن ثم يعود الشاعر إلى مخاطبتهم – فى محاولة نفسية؛ لتعطيل رحيلهم عن عينيه- قائلاً:

- «أين أعطيت عينيك؟

تحت النجوم التى سطعت مرة فوق خدي!

- ولمن أنت أعطيت ساقك؟

أعطيتها للذى سوف يولد بعدى!»[3].

إن الشاعر يعتمد فى هذه المحادثة على أسلوب الاستفهام والجواب. وهو يقوم بدور المستفهم الذى يحتاج إلى إجابات على أسئلته. وهى محاولة من هذا الشاعر المراوغ يضمن بمحتواها تعطيل حركة هؤلاء الجرحى، وتأجيل رحيلهم عن عينيه؛ ليأتنس بهم أكبر وقت ممكن.

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبد المعطى حجازى – دار سعاد الصباح ١٩٩٣ ص٤٩١.
(٢) السابق – ص٤٩١، ٤٩٢ .
(٣) السابق – ص٤٩٢، ٤٩٣ .

إنها إذن افتراضية أدارها الشاعر من طرف واحد، فهى محاورة نفسية خالصة عكست مدى حبه لوطنه، وتشوقه إليه، كما عكست من جانب آخر مدى الوحدة القاسية التى يعانى منها فى غربته:

«انظروا!
أيها القادمون بأنصاف أجسادهم
من قرى، ستظل تقاسم أبناءها لحمهم
انظروا!
كم هى الآن فاتنة هذه المدن الأجنبية!
كيف تكون بها حاجة الغرباء لأقدامهم ولأذرعهم!
آه !»[1].

هنا يكشف الشاعر عن بعد مهم من أبعاد شعور المغترب بنوبات الخوف والتوجس والتمزق النفسي . وهو ما لخصه الشاعر فى تساؤله المضنى: «كيف تكون حاجة الغرباء لأقدامهم ولأذرعهم فى هذه المدن الأجنبية».

لا مكان إذن في تلك المدن الأجنبية لغير الشخص الصحيح القادر على العمل. وهو بعد كفيل بإشعال الهواجس بداخل الشخص المغترب خوفاً مما سيصير إليه حاله إن أقعده عائق عن العمل، وإلى أى مآل سيكون مصيره إن حدث له ذلك. ومع إثارة الشاعر لتلك الهواجس النفسية نجده يتخلص من (ضمير المخاطب) ليحل محله ضمير (المتكلم المفرد) ليعبر الشاعر من خلاله عن أزمة التشرد والضياع والوحدة التى يعانيها فى غربته التى وقفت به على مشارف الموت:

«وأنا لا أزال أتابعكم
ضائعاً فى شوارعها
أتحسس لحمى الذى يتعفن فيها
وأدخل فى الليل وحدى!»

كما يلوح أيضاً ضمير (المتكلم المفرد) فى قصيدة أخرى للشاعر للتعبير عن تلك الوحدة الموحشة التى تزجيها إليه حياة الغربة:

«عدت من رحلتى وقد انصرم الصيف، أو يكاد
أدخل باريس وحدى
بلا صاحب أو دليل!»
-«وغداً!
سوف تضرب نافذتى طيلة الليل أجنحة المطر المتوحش
وتستأنف الريح ما بدأت من عويل!»[2].

---

(١) نفسه – ص٤٩٣ .
(٢) المصدر السابق ٥٦٨، ٥٦٩ .

كما يلوح فى الأفق أيضـاً بعد متكرر عند عدد من الشـعراء المصـريين المهـاجرين. وهو النـدم على فعل الرحيل والتمنى اليـائس فى العودة. وقد استخدم الشاعر فى التعبير عن ذلك صيغة: (يا صـاحبى) التى يمكن أن نلمح من خلالها قيمتين متكاملتين.

الأولى: تتمثل فى أن انتماء الشـاعر لوطنه (تراثه) ثابت لم يتزحزح أو يتغير على الرغم من طول مدة الغربة. وهو أمر يضاعف من إحساسه بالفقد؛ إذ إنه لو كان قد نسى وطنه وتأقلم مع مجتمعه الجديد لهان الأمر .

الثانية: تتمثـل فـى أن وجـود صاحب يخاطبه الشاعر هو نوع من التحايل للتخلص – ولو مؤقتاً – من براثن الوحدة القاسـية التى أنشـبت أظفارها فى نفسه .

يقول الشاعر (أحمد عبد المعطى حجازى) فى قصيدته (طللية):

«ياصاحبى قفا
فالشمس قد رجعت،
ولم تعد بغد.
كل المقاهى انتظار. ساء ما فعلت
بنا السنون التى تمضى»[1]
يا صاحبى
أخمر فى كئوسكما
أم فى كئوسكما هم وتذكار!
وما الذى تنفع الذكرى إذا نكأت
فى القلب جرحاً علمنا لا دواء له
حتى نعود،
وما يبدو أن اقتربت
أيام عودتنا، والحرج نغار»[2].

(١) السابق ــ ص٥٧٦ .
(٢) المرجع السابق ــص٥٧٧ .

كذلك يتكرر الندم على الرحيل والرغبة النفسـية الملحة على ضـرورة العودة واليأس منها فى أن معاً فى قصيدته طردية التى يقول فيها:

«هو الربيع كان،
واليوم أحد
وليس فى المدينة التى خلت
وفاح عطرها، سواى،
قلت.. أصطاد القطا
كان القطا يتبعنى من بلد إلى بلد
يحط فى حلمى، ويشدو
فإذا قمت شرد
حملت قوسى،
وتوغلت بعيداً فى النهار المبتعد
أبحث عن طير القطا
حتى تشممت احتراق الوقت فى العشب
ولاح لى بريق يرتعد
كان القطا
ينحل كاللؤلؤ فى السماء،
ثم ينعقد»[1].

«يظهر فى خاتمة المطاف أن الماء أو اللؤلؤ هى نفسـها الوطن الذى خرج منه، والقطا هو الوطن الذى رحل معه، ولكن هذا القطا ما يزال بعيداً «ومذ خرجت من بلادى». واضـح جداً هذا النفى المرير الحاد فى «لم أعد»، وواضح جداً أن عبارة «ومذ خرجت من بلادى لم أعد» تساوى فى القصيدة وقد حاولت أن أقترب من القطا. لكنى لم أظفر به»[2].

يقول الشاعر:

« صوبت نحوه، نهارى كله،
ولم أصد
عدوت بين الماء والغيمة،
بين الحلم واليقظة،
مسلوب الرشد
ومذ خرجت من بلادى.. لم أعد! »[3]

(١) المرجع السابق – ص٦٠٣، ٦٠٤ .
(٢) أحمد حجازى الشاعر المعاصر – د/ مصطفى ناصف – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦- ص٢٤ .
(٣) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي ص٦٠٤، ٦٠٥ .

إنها صرخة ضارعة صدرت عن شاعر محبط يائس سلبت الغربة رشده، وأسـلمته للوحدة والوحشـة واليأس، فلم يعد يدرك فى إطارها غير معاني التشـرد والتمزق والضـياع. وهى معان كانت جديرة بأن تنشـئ منظومة متكاملة عملت بصـورة تلقائية على إشـعال هذا الاغتراب النفسـي الذى راح يجتاح كيان هذا الشاعر، ويعبئ ما بداخله .

كما انطوى رحيل د/ محمد أحمد العزب للمملكة العربية السـعودية على محاور معاناه أعلن عنها الشاعر في صورة مأساوية تحمل بين طياتها أبعاداً لحالات الشـعور بالمرارة والضـيق التي كثيراً ما يتعرض للشـعور بها أى مغترب مصرى. وهو ما يتبدى من قول الشاعر:

«أجراء صرنا ..

صار فينا العالم النووى مساحاً لأحذية

الحفاة، وصار حتى الشاعر الهمجى وصافاً

لحمحمة الخيول الآدمية، صارت العذراء لا

تتزوج النيل المفرط، حين صارت (فى هويتها)

مربية لأولاد الكلاب!!»[1].

من خلال غزارة استخدام الشاعر لضمير «المتكلم المفرد» ينتقل الشاعر من العام إلى الخاص؛ حتى يكون هذا الشـاعر أكثر التصـاقاً بذاته، وأصـدق تعبيراً عن آثار الضيق والتمزق النفسي التى تعرض لها أثناء غربته:

«يغتالنى ليل المطارات الغريبة، وانتظار الطائره!!

وأضيع من وجهى، ومن يأسى أهاجر فى

يباب الآخرة

وأموت فى يد مخبر عطن، وتحت عيون

صراف مراب، يسقطان على حدود الجرح فى شتمى

وشتم القاهره!!

وأنا أقول معاتباً لحبيبتى: (يا مصر، ضيعك

احتواؤك للذين شفاههم يبست على نهديك، واغتالتك

كفراً فى الدروب الكافره!!

وأقول مهترئاً لمصر.. حبيبتى: (تدرين)

يا قديستى ماذا يسميك المشايخ هاهنا: (مصر

البغى العاهره)؟؟»[2].

---

(١) الأعمال الكاملة شعر ــ د/ محمد أحمد العزب ــ ص٢٧٣ .
(٢) نفسه ــ ص٢٧٤ .

اقترب الشاعر من ذاته، وكان أكثر التصاقاً بمصر التى ضيعها القائمون على أمرها الذين استنفدوا خيراتها، وأهدروا كرامتها وكرامة أبنائها، وجعلوها غرضاً لسهام الطعن والسب بأقذع الصفات .

وهى حال تثير لدى هذا الشاعر المغترب مرارة قاسية وآلاماً عميقة لم يستطع أن يردها أو يدفعها عن نفسه طالما أنه أسلم نفسه إلى عالم الغربة .

ومن ثم فإن شعور الشاعر بالإحباط من تلك الحالة التى وصلت به وبمصر إلى تلك الدرجة المتدنية كان شعوراً ذاتياً لكنه كان يحمل بين طياته كل أبعاد الانشطارية والعموم. وهنا نتساءل: هل اقتصر الشعور بالضيق والتمزق النفسي الذي تعرض له هذا الشاعر في غربته على هذا المحور، أم هل هناك محاور أخرى عملت على إذكاء هذا الشعور بداخله ؟

الحق أن الإحساس بالوحدة والوحشة الذى تعاقب على شعراء مغتربين آخرين قد تناوب على هذا الشاعر أيضاً. وكان مصدراً من أهم مصادر معاناته فى غربته؛ بحيث شكلت تلك المعاناة رافداً نمى لديه هذا الشعور بالاغتراب . ويشهد على ذلك قصيدته «العيد والحصار» التى رسم فيها الشاعر ملامح شخصيته، وقد حفرت فيها الغربة ندوباً قاسية، فبدا الشاعر فى صورة الشريد المطارد الخائف الهرم:

«يحاصرنى العيد،
يرسم ظلى.. شريداً.. على حائط العاصفه!!
يطاردنى ..
فى زحام الميادين،
(غريب)،
أراوغ فى الحبر طعن الخناجر،
تهزمنى البقعة النازفه!!
يحاصرنى العيد،
أهرم تحت السقوف الرحيمه
أكسر مرآتى الخائفة!!»[1].

فالحصار يبدو شاخصاً مع بداية كل مقطع من مقاطع هذه القصيدة؛ ليحمل معنى الندم على هذا الرحيل، ثم من ناحية أخرى يبرز مدى الوحدة القاسية التي يعانيها الشاعر في غربته التى حاول أن يتغلب عليها بحيل دفاعية نفسية تمثلت فى (أحلام اليقظة) التى يضمن الشاعر بموجبها تخطى كل العوائق الواقعية الماثلة في عالمه الشخصي المقيد المحاصر. وقد تمكن الشاعر بفضل تلك الحيلة النفسية من تخطى كل الحواجز والسدود

---

(١) السابق ص٢٦١ .

وقد التقي بقريته العاشـــقة التي جاءت إليه؛ ليلتقى بها فى عالم الخيال بكل مفرداتها وذكرياتها الحانية القريبة إلى نفسه:

«يحاصرنى..
ربما ..
ألف عيد،
ولكننى أستبد بموتى،
وأنزف أشعارى اللاهفه!!
وتدركنى..
ربما..
قريتى،
تجئ إلى..
هنا ..
فى حصارى
وتمنحنى عشقها الأزلى،
وتبكى على قبر أمى معى،
وتسهر فى دارنا للصباح»[1].

هكذا اســـتطاع الشـــاعر أن يتغلب – مؤقتاً – على كم العوائق التى يعانى منها فى مجتمع الغربة، ولكن عالم الأحلام لا أركان له؛ إذ سـرعان ما ينهار؛ ليطل من جديد واقع الغربـة الموحش الرهيب على عـالم الشـــاعر؛ ليحكم حصـــاره عليه، فلم يعد يتبين من خلالـه غير طعم الآلام والجراح التى ما تهاونت فى توجيه سهامها الموجعة لهذا الشاعر المتألم الذى سمعناه يعود إلى ذاته وكأنه يتحسس الآثار والندوب التى تركتها آثار الغربة القاسية فى نفسه:

«يحاصرنى العيد،
أعرف.. أنى.. حصارى،
وأن مداى..
مدى مشرعات،
وأن جراحى..
هنا ..
مزنة
واكفة!!!»[2].

(١) نفسه ص٢٦٢، ٢٦٣ .
(٢) السابق ٢٦٣ .

هكذا تتابعت تلك الجراحات التى ولدتها الغربة، وتواترت على نفس هذا الشاعر حتى سحقت عزيمته، وأصابت هيكله بالضمور، وأكسبته هذا الشعور بالضآلة والعجز الذى تمكن من نفسه، فلم يعد يبصر فى ذاته غير الجدب والخواء:

«وأمس ..

تزوجت عاصفة ..

وحلمت بن شردونى!!»

- «وها أنا ..

نعش..

- لم يبق منى

سوى طلل هارب

وقواف قديمه»!![(1)].

وقريباً من الشاعر د/ محمد العزب يقف الشاعر (محمد صالح الخولانى)* فى ليلة العيد منكفئاً على ذاته يعاقر أحزانها فى غربته «بالمملكة العربية السعودية» بعد أن راحت تشتعل بداخله مشاعر نارية طاحنة جرتها عليه حياة الغربة التى أسلمته بدورها إلى إعاقة إشباعه لحاجة إنسانية ملحة، هى الحصول على الأنس والألفة والتواصل مع الأهل والأحباء والأخلاء فعاش فى جحيم الوحدة، وانعدام الأنيس:

«عيد وكفاى صفر من أخلائى ... ونارهم تتلظى بين أحشائى

عيد يجىء وبينى التيه مندلع ... وبينهم ورماد التيه أشلائى

أجوب فى قيظه صحراء موحشة ... يا ليت يؤنسنى طيف بصحرائى»[(2)]

إنه أحد (المنولوجات الداخلية) لأحد الشعراء المغتربين عن مصر يحمل بين طياته بواعث الندم على الرحيل، والرغبة اليائسة فى العودة إلى الوطن. كما يحمل أيضاً آثار الوحشة الطاحنة التى تفرضها الوحدة القاسية الموحشة فى نفس الشاعر المغترب الذى مافتئ يتحايل على هذه الأحاسيس المضنية من خلال الهروب من واقع الغربة المر إلى عالم التذكار والرحلة إلى عوالم الماضى حيث يكون الوطن بكل ذكرياته الجميلة المحببة إلى نفس الشاعر:

«ذكرتنى بليالى العيد فى وطنى ... وما يرقرق من عطر وأنداء

وما يطوف بأهلى من مباهجه ... وما يبيت على شوق أحبائى

أطيافهم لمع خضراء ناعمة ... يرونها حلماً فيما يرى الرائى

حتى إذا أشرقت بالعيد طلعته ... تراكضوا كفراش حول أضواء»[(3)]

---

(1) السابق ٢٨٦ .

*** من مواليد بورسعيد سنة ١٩٥٣، تخرج فى كلية اللغة العربية جامعة الأزهر سنة ١٩٦٣، تنشر أعماله منذ بداية الستينيات .**

(2) أشواق رحلة العودة – محمد صلاح الخولانى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٦- ص٤٨- يرجع تاريخ هذه القصيدة إلى عام ١٩٨٤ بجدة .

(3) السابق- ص٤٩ .

ثم يستفيق الشاعر من (أحلام اليقظة) التى طافت بمخيلته؛ ليواجه العيد بهذا التوسل الضارع الذى تمنى الشاعر من خلاله أن يتركه العيد، ويخليه منكفئاً على أحزانه، وألا يغريه بعد ذلك بأمل يحققه في عالم الغربة، حتى لا يتحمل من جديد مشاعر أخرى من الفقد والاستلاب التى سوف تنتابه عندما تتبدد ملامح هذا الأمل بين غيامات الغربة:

«وجئت ياعيد منسلاً إلى زمنى — وفيك ما فيك من نعمى وآلاء
أغريت يا عيد بالأفراح أفئدة — وما استطعت بها يا عيد إغرائى
دنياى تمضى نداءات ورجع صدى — فخلنى لنداءاتى وأصدائى»[1]

اصطنع الشاعر فى هذه القصيدة حيلة نفسية يتحايل بها على الإحساس بالوحدة، وفقدان التواصل وانعدام الأنيس. وقد تمثلت تلك الحيلة النفسية فى الهروب إلى عالم الماضى والذكريات. وهو فى قصائد أخرى يكثر من استخدام (ضمير المخاطب)؛ للتخلص من أحاسيس الوحدة القاسية التى انتابته فى غربته؛ حيث نسمعه من غربته يخاطب رفيقة عمره:

«ورغم الليالى التى طوحتنا — وراء العباب وفوق العنان
«أرى فيك مثل رؤاى المواضى — عوالم سحر ودنيا افتتان
وما زلت أستروح الليل عطراً — يسيل على شفة الأقحوان
مضى الزمان البكر وانسل يجرى — كما انسل فى الظلمة الأفعوان»[2]

وفى موضع آخر يخاطب صغيرته، فيقول:

«لم يبق إلا ليلة. وأعود — ليطل من عينيك هذا العيد
هى بضع ساعات وما أدرى متى — تمضى وشوقى فى دمى عربيد
وعلى رؤاى تواثب الزمن الذى — أقصته عن يومى ليال سود»[3]

فى قصيدته (من مغترب مصرى إلى أمه مصر)*:

-«يا مصر والنيل يجرى فى مرابعه — لا مثلما انبجست فى الأرض أنهار
نظل نذوى على ترحالنا ظمأ — والأرض من حولنا جدب وإقفار»

إن استخدام هذا الشاعر لضمير المخاطب بكثرة له أبعاد غائمة أومأت إلى مدى ما تحمله هذا الشاعر في مجتمع الغربة من ألم ومعاناة جرتها عليه حياة الغربة المغلقة بالوحدة القاسية، وانعدم الأنس والتواصل .

ويلوح من جديد رافد متكرر من روافد الشعور بالاغتراب النفسي الذى ظهر واضحاً عند شعراء آخرين اغتربوا عن مصر يتمثل فى قتل الطموحات والأحلام التى من أجلها كان تحمل الشاعر لمشاق تلك الغربة التى أدمت قلبه

---

(١) السابق ص٥٠ .
(٢) المصدر السابق – ص٣١، ٣٢ والقصيدة عنوانها (بعد السنين) وهى مؤرخة بسنة ١٩٨٢ بجدة .
(٣) السابق – ص٤٥- والقصيدة عنوانها (إلى صغيرتى... فى ليلة العودة) وتعود كتابتها إلى عام ١٩٨٤ بجدة.
*** القصيدة مؤرخة بعام ١٩٨٢ .**

يتضح ذلك فى قصيدته (عودة) التى يقول فيها:

«حلمت زماناً
بأن وراء البحار البعيدة
وخلف التخوم المضواة فى طرقات القمر
جبالاً من المسك والزعفران
وأرتال حور تناغم فى ضحكهن النداء»[(١)].

- «وسرت أبعثر حلمى على الموج
أنثره فى عيون النوارس
أعلقه فى السحاب الدءوب
مواسم غيث وبشرى حصاد
وأرشقه فى اندلاع النهار»[(٢)].

إن الشـــاعر الذى شـــرع فى خوض رحلته الطامحة متحملاً المشـــاق والمعاناة، بغية تحقيق آماله – يبدو أنه قد خاب مســعاه، وضــاع منه ما كان يبغى الحصول عليه من تلك الرحلة فلم يعد منها بما أراد:

«وعدت
على شفتى بقايا غناء قديم
عن الحلم والريح والأمسيات العنيدة
وعن جزر الجن والخوف والخطوات الشريدة
أدارى به سوأة العجز والأوبة الخابية»[(٣)].

يبدو أن الشاعر فقد في تلك الرحلة الخائبة آماله وأمنياته، وفقد أيضاً إيمانه وثقته بنفسه عندما قرر خوض غمار تلك الرحلة المضنية التى أفقدته صوابه بعد أن عانى فيها أحاسيس الأسر والحيرة والتخبط والضياع:

«وسرت وفى القلب عاصفة من تمن
ولم أدر أنى وقعت أسيرا
لدى لحظة الدهش المستبدة
وفى غمرة اللحظة الموغلة
تبينت أنى
نسيت الخرائط والبوصله
وعميت عن طرقات النجوم

(١) السابق - ص٦٠، ٦١ – القصيدة بتاريخ ١٩٨٥.
(٢) السابق – ص٦١، ٦٢ .
(٣) السابق – ص٦٠.

نسيت على الشط فى لمعة الألق الشارد
ونشوتى الطفل
والتوق للرحلة الواعدة
ردائى
ودفتر علم حساب الرياح
وواجهت أنواء ليل الشتاء
وهاجرة الصيف والأحرف المبهمة
بعريى وعين عماء كليلة
وأرجاء كابية معتمة»[١].

هذه القصيدة تبدو مرشحة لاعتبارها رحلة رمزية خاضها هذا الشاعر (السندباد)، ولكن مع نهاية القصيدة تتكشف الحقيقة؛ حيث يلوح اسم (الوطن) ليدلل على واقعية الآثار التى سببتها الغربة الموحشة فى نفس هذا الشاعر؛ خاصة وأن الشاعر استخدم فى نهاية المقطوعة السابقة لفظ (العرى) وأضافه إلى نفسه، ثم كرر هذا اللفظ أيضاً فى المقطوعة التالية؛ ليعكس خسرانه وافتقاده لكل الحوافز والدوافع التى تسلح بها فى تلك الرحلة، وتحطيم معنوياته بعد تلك العودة الخائبة التى منى به مع نهاية تلك الرحلة الصعبة الطويل:

« تسائلنى الريح عن صيدى المر عما يضم محارى العجيب
وأخجل إن تبد سوأة عريى
فتنهد فى شفتى الإجابة
فما أعسر البوح حين ينز اللسان المراره
وينكفئ القلب فوق انكسار العبارة
وفوق التياع الأسى والحزن
ويبدو الكلام
معابر للتيه.. لا للوطن»[٢].

وهكذا بدا واضحاً أن حياة الغربة قد ولدت لدى هذا الشاعر شعوراً حاداً بالاغتراب النفسي لم يستطع أن يتخلص من آثاره، فبدا على هذا النحو من الوضوح والجلاء .

(١) السابق – ص٦٢ ، ٦٣ .
(٢) السابق – ص٦٣ .

كما أمضى الشاعر (فاروق شوشة) «حقبة من عمره فى الكويت فى بداية الستينيات»[١] ومن ثم وجدناه يعلن عن الضريبة الباهظة، والثمن الفادح الذى يدفعه الشخص المغترب من اغترابه عن مصر:

عند المدى المسدود ألقينا الرحال
جمحت مراسينا...
لوت أعناقنا ريح الزوال
ماذا؟... وأطرقت العيون
وتحدر الصمت الحزين
شىء يشد الراحلين
يلقى بهم فى هوة المجهول، فى رعب المحال
شىء كخطوهمو سجين
لم يبق غير صدى لهاث.. وقع أيام ثقال
وعزيف لحن خافت.. عبر المفاوز فاستحال
بعض اصطبار، بعض تأساء، وحشرجة ابتهال»[٢].

إنها رحلة أزجت كثيراً من مشاعر الفقد والاستلاب ؛ خاصة عندما يعود المغترب خالى الوفاض بعد أن يكتشف فى نهاية الأمر أنه كان يسعى فى رحلته خلف حلم زائف (وهم خريفى):

«يا جانحين إلى الخليج... كأن فردوس السنين
هبطت به الدنيا على قاع التلال
فإذا الذى يوماً ظنناه ينال
وهم خريفى... تسرب فى الرمال!»[٣].

إن الشاعر لم يجن من رحلته الشاقة هذه غير الوهم، ونلاحظ هذا التنويع فى الضمائر (المتكلم والمخاطب والغائب).

وهى ضمائر صدرت معظمها فى صورة الجمع، ولعل للشاعر آراء من خلال ذلك أن يشير إلى أنه لا يستثنى نفسه من تحمل مشاق تلك الرحلة عامداً إلى إشاعة حالة من «المشاركة الوجدانية» التى تنتاب الإنسان عندما يتشارك مع غيره فى هم إنسانى عام. وقد قصد الشاعر من وراء ذلك الإشارة الضمنية والعلنية إلى خيبة الأمل، والشعور المضنى الذى ينتاب الشخص المغترب الذى يعود إلى مصر

(١) البنية الشعرية عند فاروق شوشة – د/ مصطفى عبد الغنى، الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٢ـ ص٣٠.
(٢) الأعمال الشعرية – فاروق شوشة – ١/ ٥٢، ٥٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٤، أنشدت هذه القصيدة عام ١٩٦٣.
(٣) السابق نفسه والصفحة نفسها .

ولم يحصـــل على الثمن المكافئ لتلك الغربة التى خاض غمارها، وتحمل فى إطارها الكثير من المصاعب والمشاق:

«على جناح الصيف يرجعون
تلقى بهم مدائن الغربة والعراء والحنين
فى مفارق الطرق»
-«تتابعت حقائب المحملين والمزودين
واختلطت مواكب المشيعين والمودعين
وانفتحت خزائن المحدقين فى انبهار
وليس فى الجراب غير كومة من السنين
وحفنة من المحار
لعلها من بعد طول النأى والترحال والطواف
ورحلة الخريف والجفاف
لعلها الثمن!»[1].

لعلنا نستشعر أن جميع الشعراء الذين تم تقديمهم هنا يرون أن ما حصلوه من رحلاتهم هذه لم يحصلوا على ما يكافئ اغترابهم. يبدو أنهم يرون أى ثمن لا يكافئ هذا الاغتراب وفي هذا دلالة على شـدة حبهم لمصـر، وشـدة وطأة الاغتراب على قلوبهم الملتاعة لبعدهم عنها.

(١) السابق – ص٤٥٣، ٤٥٤.

الفصل الثالث : الشاعر المغترب والصدمة الحضارية

سبقت الإشارة إلى أن الشعور بالاغتراب النفسي الذى انتاب عدداً من الشعراء المغتربين عن مصر كان نتاج إعاقة الغربة لإشباع حاجة إنسانية ملحة هى التواصل التام مع المحيطين بالشاعر المغترب. ومن ثم أطلت المقارنة النفسية بوجهها المضنى من داخل هؤلاء الشعراء؛ لتعلن عن تمزقهم بين عالم الماضى الذى كان مسرحه الوطن الذى كانوا يحققون فيه التواصل، وبين ما صار إليه الحال بعد ذلك فى مجتمعات الغربة من انعدام هذا التواصل.

هذه المقارنة التى بدت فى شعر عدد من المغتربين قد أدت إلى ظهور أحاسيس مضنية من طريق آخر؛ فقد أتاحت حياة الغربة لعدد من الشعراء الاطلاع على حضارة الآخرين فى مجتمعاتهم – خاصة الغربية منها -؛ فكان أن نتج هذا الشعور بالفقد والتشتت والتناقض الذى تمخض عن مقارنة من نوع جديد مختلف عن تلك المقارنة السابقة؛ حيث عقدت أواصر تلك المقارنة بين عدد من المدن الأجنبية التى عاينها هؤلاء الشعراء ورأوا ما تنعم به من تقدم وحرية وازدهار فى شتى المجالات، وبين مجتمعهم الأصلى الذى ما زال يرزح تحت أغلال التخلف والقمع والفقر؛ خاصة وأن بعض هؤلاء الشعراء قد التفت مباشرة إلى ماضى أمته الإسلامية المجيد؛ ليقارن بينه وبين ما صار إليه الحال من ضعف وتشتت وانحلال. وتلك مقارنة ستظهر عمق الهوة بين هذه البلدان، وتلك. وهو ما يؤدى إلى إذكاء الشعور بالتمزق النفسي ومد هذا الشعور برافد إضافى ساقته إلى المغترب حياة الغربة والترحال .

وقد كان وقع هذا الإحساس بالفارق الحضارى حاداً وعنيفاً على نفس الشاعر (فاروق شوشة) الذى زار (ألمانيا الديمقراطية فى يوليو ١٩٧٠)[١]، فوقف مبهوراً مذهولاً من جمالها ونظافتها ونظامها:

«يا عبرة الدنيا نجوس فى ثراك عابرين، خاشعين
نطالع الغد الوضىء، والشوارع النظيفة، المنظمة
ونلمس الفن العظيم نابضاً، يضىء كل ساحة ومنعطف
وعندما تقول شارة الميدان: قف
نجول بالعيون فى المفاتن المزدحمة
يبهرنا اخضرارك المطرز الأنيق
يبهرنا قوامك المتئد الممشوق
يبهرنا فضاؤك الطليق
تبهرنا عيناك حين تهجعين طفلة، وحين تصبحين
معشوقة تسألنا: من منكمو العشيق؟»[٢].

(١) الأعمال الشعرية – فاروق شوشة – ١/ هامش ص٢١٤ .
(٢) السابق – ص٢١٦ .

إن تكرار الشاعر كلمة (يبهرنا) يؤكد على مدى ما انطوت عليه نفسه من إعجاب وافتتان بهذه المدينة التى نهضت من (حطامها المهين) بعد أن انقشعت عن سمائها ويلات الحرب والخراب والدمار؛ لتبدو أمام الناظرين على هذا النحو من النظافة والتنظيم والأناقة.

تلك كانت (برلين) المليئة بمظاهر الروعة والفتنة والجمال. أما عندما يتذكر الشاعر عودته إلى مصر فإن أحاسيس الفقد تطل برأسها من داخله؛ لتعلن عن التصاقها بتلك المقارنة المضنية:

«وأسأل الصدى

ما أبعد الطريق.. والمدى!

وأين نحن؟ أين نحن منك يا برلين!»[1].

وللشاعر الحق فى هذا الإحساسا المضني الذي ألمَ به ؛ لشعوره بخلو وطنه من هذا الجمال الخلاب:

«نعود يا برلين من فضائك المديد..

نعود من «جيرا» ومن «تارانت» فى عيوننا سؤال:

هل بعد هذا يا إلهنا جمال؟

وتلتوى الوجوه والأعناق..

يشدها انبهار لفتة إلى الظلال..

وآه ما أقسى الجمال حين يصبح الجمال فى عيوننا

محال!»[2].

إن تلك المقارنة النفسية الطاحنة التى عقدها الشاعر مقطوع سلفاً بصحة نتائجها، ولكن الشاعر قد رأى ما أذكى لديه هول التناقض الذى عاينه بين (برلين) المنظمة الجميلة، وبين مصر الخالية من مظاهر الحسن والروعة والجمال فى عيون هذا الشاعر المحبط الذى نظر إليها بعد أن رأى جمال غيرها .

كما زار الشاعر أيضاً مدينة (لندن) التى وجد فيها مصدراً كبيراً للإلهام الشعرى بكل ما تجود به هذه المدينة من جمال وروعة يصعب الحصول عليها فى مصر[3].

(١) السابق – ص٢٢٠ .
(٢) السابق – ص٢٢٢ .
(٣) انظر وجه أبنوسى – فاروق شوشة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٠- ص١١٩.

ولكن تلك الزيارات لم تكن هى خاتمة تطوافنا مع هذا النوع من الإحباطات التى تعرض لها هذا الشاعر؛ فقد سبقت زيارة الشاعر (للاتحاد السوفيتى فى سبتمبر ١٩٦٩)[١] وعاين بها آثاراً للرواد المسلمين الفاتحين؛ لتتفجر فى نفسه أحاسيس مضنية عندما رأى فى أنحائها بقايا تلك الفتوحات الإسلامية، واسترجع ذكريات أمجادها العظيمة التى أبيدت وأصبحت أثراً بعد عين:

«فى «طشقند» بقايا من قلبى وحروف من كلماتى
تلتصق بجدران الزمن الخالى المهجور
وتراب يحمل عطر الفجر الأول فى تاريخ بلادى
وبقايا أصداء خفتت من قافلة النور».
-«أبطالها كانوا.. ركزوا المشعل فى قلب السند
أطلالاً بقيت...»[٢].

لقد تلاقى ماضى الإسلام المجيد، وحاضره الذى أبيد منه هذا المجد فى قلب هذا الشاعر الحزين الذى حاول استحضار هذا المجد الذى تحول إلى أطلال بائدة:

«أوشك أن تمتد يمينى لتصافح وجهاً مألوفاً
وجهاً عربى السمت ندياً بالبسمات
أوشك أن يتلاقى الغابر والحاضر فى قلبى
تتداخل فى سمعى أصداء صليل وصهيل
وفيالق وبيارق شتى ونداءات»[٣].

ويتكرر هذا المعنى ذاته مع زيارة الشاعر (قرطبة مارس ١٩٧٧)[٤]، حيث يقول الشاعر – من وحى تلك الزيارة-:

«مازال فى المحراب من صدى زمانه الذى ولى أذان
ترتج دون وقعه الجدران، يهتز الزمان والمكان
وتستدير ملء صحنه المضمخ العطور مقلتان
تستجليان مواكب الأمان فى جلاله وتسجدان
هذا ضياء الله،
بيته المشع بالسلام والأمان»[٥].

(١) الأعمال الشعرية – فاروق شوشة – هامش ص٢٢٥ .
(٢) السابق – ص٢٢٧، ٢٢٨ .
(٣) السابق – ص٢٢٨ .
(٤) السابق – هامش ص٤١٨ .
(٥) السابق ص٤١٩ .

ولكن الشـاعر لا يلمح تلك المعانى الإيمانية الجميلة فقط، بل سـرعان ما ستقفز أمام مخيلته تلك المفردات القاسية المأساوية الرهيبة:

«ألمح حجراً يبكى

أطلالاً تعول فى وقفتها الأسطورية

لحناً كعزيف الجن يدمدم بين تخوم الربوة،

والجسر المهجور

أسمع هسهسة، وشجوناً، ما زالت حيرى مغتربة

فى قاع النفس تثور»[١].

وعلى مسافة قريبة جداً من الشاعر (فاروق شوشة) يقف الشاعر (فوزى العنتيل) الذى رحل إلى أوروبا (فى منتصف عام ١٩٥٩)[٢] ليقف هو الآخر باكياً بلدة سراييفو المسلمة التى تقع فى أوروبا. وبالطبع فقد استخدم الشاعر فى رثاء أمجاد المسلمين الغابرة تلك المقارنة المضنية بين ماضى الأمة الإسلامية فى صوره الزاهية المفعمة بالأمجاد، وبين حاضر تلك الأمة فى صورته المتردية المتخاذلة التعسة:

«هنا سراييفو». معلقة فى حواشى السحاب

عقاب جناحاه مبسوطان

على ألف دار

وعيناه – فى الليل- ياقوتتان

خرافيتان – تسطع ألوانها بالقباب

هنا الثلج يسقط فوق الجبال

ويكسو المنارات التى تتنهد لاهثة بالأذان

وقد صدأ الدهر من حولها.. وتعرت

من الدهشة القباب التى ركضت

حولها الخيول زماناً.. ورنت

على الهضاب السيوف

ودوت بصوت المؤذن ذات صباح

أعالى الجبال ، فاهتزت السهول

الفساح

سهول سراييفوا .. ارتجف النهر»[٣].

---

(١) السابق ص٤١٩، ٤٢٠ .
(٢) الأعمال الكاملة – فوزى العنتيل – ١/ ١٠- الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥ .
(٣) السابق – ص٢٨، ٢٩ .

هذه إذن هى صورة (سراييفو) البلد الأوروبى المسلم أيام كان عزيزاً قوياً تعلوه الروعة والجمال، عندما كانت خيول المسلمين الفاتحين تركض حوله، وسيوفهم تتعالى، وأصوات المؤذنين تطاول أعالى الجبال، فتهتز لإيقاعها سهول سراييفوا الفساح، ويرتجف النهر عند سماعه صوت الأذان .

هذا ما قد كان. أما الآن فقد ذلت (سراييفو) بعد عز:

«.. ارتجف النهر
لكنه الآن.. لا يتموج
.. يدلف همساً..
تكاد المياه فى نهر «البوسنة» المتعرج
تجهش وهى ترى (المنارات) خرسا
تتمتم فى لكنة أعجمية..!
.. ويدوى الصدى.. فى دموع المطر»[١].

ويوغل الشاعر أكثر في تعبيره عن شعوره الحاد بالإحباط الذى منى به؛ لإحساسه بالذل والإهانة بعد أن دنست المساجد، وأنتهكت المقدسات، وضاعت كرامتها:

«هنا سراييفو..
.. وانتهك السائحون المساجد
أقدامهم تتعثر وهى تدوس بقايا المطارف
وأعينهم حملقت فى السقوف
التى ازدهرت بالزخارف
ويسألنى ذلك الأعجمى:
- أين بطاقتك؟ ادفع إذا شئت
أن تتجول عبر الدهاليز
وأنظر فى دهشة المفزع
من سرحة الذكريات
ولكنما صوته يلاحقنى، دون رحمه:
- «بارليه فرانسيه[٢]
وأصمت فى حيرة؟.. وأدور
على عقبى. فلست أريد
امتهان قداسة هذى المزارات»[٣].

(١) السابق – ص٢٩ .
(٢) عبارة باللغة الفرنسية تعنى (تحدث الفرنسية).
(٣) السابق – ص٢٩، ٣٠ .

ثم يقدم الشاعر نماذج تقطع أنوطة القلوب، وتدميها بكاء وحسرة على ما صار إليه حال أبناء المسلمين فى هذا البلد المسلم لتعرضه لموقف الذلة والهوان:

«- بارليه فرانسية؟

- أنا (جمال دين.. أنا مسلمان)

الله أحد

.. أبى ما يزال يقيم صلات)

وتسطع فى وجهه كالغريق

التماعات ماض قديم

وحين تلفت عبر الطريق

- فى وهن – تحت فيض المطر

تحمل طفلاً ويهتف ممتقعاً صوتها:

«صدقات» ..!

وحدقت نحو قباب المساجد

والمئذنات التى ما يزال

يغمرها وهج الذكريات

- .. لو أنها قدمت ذات يوم

إلى عتبات السلاطين

لأقطعتها ضيعة فى السهول»

إنه إذن حال الإسلام الذى انحسر مده، وتوقفت فتوحاته منذ قرون بعد أن كان يضىء أركان العالم بنوره وهداه، فهان أبناؤه، وذاقوا الذلة والمهانة .

هل يمكن إذن أن نتجاوز الغربة دون أن نسجل هذا الرافد كمكون أصلى، وداعم أساسى للشعور بالتمزق والاغتراب النفسي الذى عاناه هذا الشاعر وغيره من الشعراء في المجتمعات الأجنبية؟ إذ يشعر فى تلك الغربة بكل أحاسيس الشخص المغترب يضاف إليها هذا التناقض الرهيب الذى سيسقط الشاعر فى براثنه، ولا يكاد يتخلص منه حتى يجد نفسه قد تسللت مشاعر الفقد إلى قلبه، واستكنت فى سويدائه:

«ولكنى الآن.. واخلجتاه

غريب هنا.. عابر كالغمام

الذى كان يسبح فوق الجبال

والقلب يرجف حزناً

ووجهى غريب كهذى المآذن

حين يظللها الليل تطرق

شاحبة فى أعالى الجبال»

ويتكرر هذا الأمر نفسه مع الشاعر د/ عبده بدوى الذى طالع مسجداً بـ(لينينجراد)؛ فهللت قسمات هذا المسجد، واستعبرت عيناه عند رؤية الشاعر الذى ذهبت حسرته، وتبدد ضيقه عندما حل فى رحاب هذا المسجد، ولامس جدرانه ونقوشه:

«طالعته «بلننجراد» فهللت قسماته، و استعبرت عيناه
مد القناديل التقية فى دمى وهدت خطاى على الطريق خطاه
لما لمست جداره، ونقوشه رف الفؤاد وغردت دنياه
قد كنت فى ضيق فأذهب حسرتى ومضى يطرز فى الفؤاد سناه
وغدا يلف مشاعرى وقصائدى وتحاوطنى بالحنان يداه
هى لحظة.. ورأيته فى داخلى - ومشى الحديث حروفه ونداه-»[(١)]

ولكن راحةهذا الشاعر، واطمئنانه لا يستمران طويلاً؛ إذ سرعان ما يقع فى شراك تلك المقارنة المضنية التى لن يستطيع أن يفلت منها بين ماض عز فيه المسلمون، وسادوا، وبين حاضر تحاصرهم فيه ضروب الضياع والهوان. وقد بدت تلك المقارنة من خلال هذا الحوار النفسى المر الذى أداره الشاعر مع هذا المسجد؛ خاصة بعد أن راح الشاعر يسأل المسجد أسئلة ينتظر الإجابة عنها:

«قد رحت أسأله بصوت خاشع عن فتية عبروا إليه وتاهوا
عن عالم متألف متراحم سطعت به - رغم السجود - جباه
عن قومنا تركوا الجزيرة فالدنا فرس يكر، وشاعريتاه
عن عدلهم، وعن السكينة بينهم وعن النقاء، وسحره، ومداه
وعن القصائد غردت جناتها والمجد يشرق، والندى، والجاه»[(٢)]

لكن هذا المسجد لم يجب بشىء؛ لأنه لم يجد ما يرد به عليه، وحار فى الإجابة عن تساؤلاته؛ فقد راح هو الآخر يرد على تساؤلات الشاعر بتساؤلات بدت فى مجملها تستعصى عن الإجابة:

«لكنه ما قال شيئاً يرتجى ومضى يقول - ولوحت كفاه -
يا زائرى! كيف الحياة بعالم قد جئت منه؟ وكيف عشت تراه؟
قل لى: هل القدس الحزينة لم تزل من غير تكبير يهز صداه؟
وهل استردت جنة قد ضيعت وأعاد طفلاً تائهاً أبواه ؟
وهل الزهور تدور فى رقصاتها؟ وهل الربيع تكلمت شفتاه ؟
وهل الوجود أصوله عربية ؟ وهل القصائد لم تزل ترعاه؟»[(٣)]

ولم يستطع الشاعر أيضاً أن يجيب إجابات شافية عن هذه الأسئلة المستعصية التى راح يمطره بها هذا المسجد الموجود بلينينجراد. خاصة فيما يتعلق بأسئلته المرتبطة بالقدس والعروبة. ولذلك آثر الشاعر الانسحاب بعد أن قام مع هذا المسجد علاقة تحاورية ساد فيها طابع التساؤلات التى عجز كلاهما عن الإجابة عنها.

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى - ٢/ ١٩٥، ١٩٦ .
(٢) السابق ص١٩٦ .
(٣) السابق - ص١٩٦، ١٩٧ .

ومن ثم كان الوداع، وكان الأسى والبكاء:

«صار السؤال هو الجواب.. فجاذبت ... إحدى النجوم حديثنا لسواه؟!
ثرثرت لكن قد شعرت بأننى ... ما قلت شيئاً واضحاً يهواه
فأدرت فى حزن جناحي، بينما ... قلبى يجرجر فى الطريق شجاه!
هو قد بكانى حين رحت مودعاً ... وأنا بكيت حنينه وأساه
ما زلت أرمقه، ويفصل بيننا ... سيف يحز بخافقى حداه»[1]

إنه وجه الإسلام والعروبة يطل على عالم الشاعر المغترب، فيوقظ فى نفسه تناقضاً طاحناً بين صورة العرب والمسلمين أيام كان الفتح والمجد والجهاد أحد أهم الادلة على وجودهم وتسيدهم العالم، وبين ما آل إليه حال هؤلاء المسلمين الذين تشتتوا وضاعوا، وتبددت مظاهر قوتهم، وتبدد معها الأمل فى استرداد الأماكن المقدسة الغالية التى سقطت من أيديهم.

وهى مقارنة عنيفة تحمل الشاعر على الانسحاب والتهرب من تساؤلات وتناقضات راحت تعصف بنفسه فى مجتمع الغربة بعد أن أترعت قلبه بأحاسيس الخيبة والفقدان .

كما يبدو الشاعر د(حسن فتح الباب) فى صورة من يتعمد السقوط فى وهدة تلك المقارنة القاسية التى صاغها بين مدينته القاهرة، وبين مدينة (باريس) التى يزورها. وقد أشعلت تلك المقارنة هذا التناقض الحاد الذى راح يجتاح كيان هذا الشاعر دون سابق تحذير أو إنذار، وقبل أن يهيئ الشاعر أى استعداد نفسى أو ذهنى لذلك :

ينهمر الفرح الليلى على باريس
فأمشى متكأ فوق ذراع الحلم الآتى
وكأنى تحت الأجراس الفضية أشدو
لكن القمر الثلجى على قاهرتى المسكونة
بالمقت الموصومة بالصمت
يطوقنى»[2]

(١) السابق – ص١٩٧، ١٩٨ .
(٢) الأعمال الكاملة للشاعر حسن فتح الباب- ١/ ٦٧٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٨ .

ونلاحظ هنا طرفي المقارنة: باريس (الفرح، الحلم، الشدو، الأجراس الفضية)، القاهرة (المسكونة بالمقت الموصومة بالصمت، القمر الثلجي، يطوقنى) إنها مقارنة فرضت نفسها على هذا الشاعر، واقتحمت قلبه وعقله، وسيطرت عليه، فانتشرت تداعياتها المرَة بين أجزاء القصيدة:

«ويطوقنى القمر الثلجى
تراودنى حسرى أنفاس النيل
وينتشر الطاعون
ينتشر الطاعون
حتى فى الممياوات الغرقى
وتفر فراعين «الأقصر»
من وجه الطاغية الخزفى المأفون
تنشد وطناً فى جدران «اللوفر»
لا يتحول فيه الحرف الأخضر
ورقة توت فى فخذى غانية القصر
وينوح المتنبى فى مصر»[١].

إن الشاعر من غربته بباريس قد أطال في رصد حال وطنه الذى دبت فيه مظاهر الضعف والضمور بعد أن تكالبت عليه الأدواء كالظلم والقهر والتخلف والخداع:

«ألقت بى قدماً جوال مكسور القلب
منزوف الشدو
تحت مساء قاس.. وحشة
وعيوناً لنشاوى فى بحر الظلمات
أسارى العدل الموهوم
وتباريح الغرباء
فتراءى لى وطنى معقوف الخضرة
معصوب العينين
مسكوناً بالقهر الأبدى
وأحلام الفقراء بالموت المجانى»[٢]

---

(١) السابق – ص٦٧٢ .
(٢) السابق – ص٦٧٢، ٦٧٣.

تحدث الشاعر عن باريس ذات الفرح الليلى المنهمر التي انتشى بأحلامه فيها؛ يشدو بها تحت الأجراس الفضية فيما لا يزيد على ثلاثة أسطر شعرية فقط، ثم مع بزوغ الطرف الآخر من المقارنة – عندما تبدو القاهرة (مصر) نجدها تحتل بقية مساحة القصيدة في حديث كان الشعور بالأسي والحزن طاغياً عليه، بعد أن غذته تلك المقارنة النفسية القاسية التى ما أطلت على سطح القصيدة حتى لفتها وسيطرت عليها، واعتصرت نفس قائلها، وصار رفيق الأسى والأحزان:

«وتقيأت صديداً

كان الهرم الأكبر يطفو فوق الطوفان

تمثالاً مخضوب الشفتين

مجدوع الأنف

فى ركن من ساحة بيجال

تغمره أشباح النخاسين

أسود أجوف

كان القمر الساجى فى قلبى ينزف...»[1].

وكما ارتبطت «باريس» بالحرية والانطلاق عند الشاعر (حسن فتح الباب) وهو ما استدعى مفردات التطويق والقمع الذى يطفو على سطح الحياة فى مصر، كان الحال كذلك مع الشاعر (فاروق جويدة) الذى نسمعه – من باريس – يقول:

«باريس..

الآن أجلس فى ربوعك

دون همس أو كلام

قطعوا لسانى

إنى فقدت النطق ياباريس من زمن بعيد

قالوا بأن الناس تولد..

ثم تنطق.. ثم تحلم ما تريد

وأنا أعيش وفى فمى قيد عنيد»

-«باريس

إنى اكتفيت بأن أرى عينيك

خلف «السين» كالعمر الجميل

فالصبح فى عينى شىء مستحيل

والحلم فى أعناقنا قيد ثقيل»

(١) السابق – ص٦٧٣، ٦٧٤ .

والشاعر لا يزال يؤكد على أحاسيس الاغتراب النفسي التى تناوبت عليه لقمع وتكبيل حريته:

«كم كنت أحلم..

أن أجئ إليك مشدود الخطى

لكن قيداً فى الضلوع يشدنى

وأقوم يجذبنى

وأصرخ يحتوينى.. ثم أسقط كالحطام

وأرى الكلام يسيل فى صدرى..

وينزف تحت أقدامى ..

ويلقيه الزحام.. إلى الزحام

كلماتنا صارت دماء

ودماؤنا صارت كلام»

يبدو الشاعر هنا مستغرقاً فى تعداد آثار ذلك الشعور المضني الذى أطل على نافذة الشاعر من خلال هذا التناقض الهائل بين حال الحريات فى (مصر)، وحالها فى دولة متقدمة مثل (فرنسا). وهو ما دفع الشاعر إلى أن يتقدم (لباريس) بهذا الرجاء:

« لى فى ربوعك قبل أن أمضى رجاء

سيجىء ابنى ذات يوم

علميه النطق يا باريس

أن يحكى .. ويصرخ

أن يقول كما يشاء

فلقد تركت له لسانى

بين أوراقى ذبيح

حتى تطل دماؤه بعدى تصبح ».

ويلاحظ أن أوجه المقارنات السابقة قد تبدت فى شكلها الظاهرى العام الذى عكسته مشاهد ونظم دول عاينها هؤلاءالشعراء. ولكن هذه المقارنات لم تنحن على بعض العادات والسلوكيات التى تعرف عليها الشاعر في مجتمع الغربة بعد أن كان فى مصر لا يعرف شيئاً عنها. وهذا ما حدث مع الشاعر (صلاح عبد الصبور) الذر طار إلفه عنه فى مدينته القاهرة، وعرف فيها معنى التشرد والضياع ومع ذلك ظل مرتبطاً بها يهواها؛ ربما بدافع تأصل الانتماء، وربما لأنه لم يشاهد الأفضل. ومع حدوث ذلك بعد عودة الشاعر من رحلته إلى (الفلبين) نجد تلك المقارنة النفسية – وهى مقارنة شخصية ذاتية تقوم على مضاهاة عادات الشاعر، وقيمه وسلوكياته التى أضاع عمره محترفاً فى أتونها فى مدينته القاهرة، وبين العادات والسلوكيات ذاتها. ولكن مع فارق شاسع، وذلك عندما نظر إليها من منظور مجتمع آخر:

«لاتذكارات معى.. لا .. بل أعطتنى مانيلا
شيئاً من حكمة ما نيلا
أعطتنى أن الفم لم يخلق إلا للضحك الصافى الجذلان
أعطتنى أن العينين
مرآتان يرى فى عمقهما العشاق ملامحهم
حين يميل الوجه الهيمان على الوجه الهيمان
أعطتنى أن الجسم البشرى
لم يخلق إلا كى يعلن معجزته
فى إيقاع الرقص الفرحان
درس عرفته روحى بعد فوات الأزمان
بعد أن انعقد الفم بضلالات الحكمة والحزن
وأرخى ستر القلق الكابى فى نافذة العينين
وتصلب جسمى فى تابوت العادة والخوف
بعد أن احترقت أو كادت بهجة عمرى
إذ رمت الأيام رماد حياتى فى شعرى
درس عرفته روحى بعد فوات الأزمان»[١].

إن الشاعر عرف بعد فوات الأوان أنه قد أضاع أو كاد أن يضيع بهجة عمره عندما رضى أن يدفن نفسه فى تابوت العادة والخوف، وهى قيم وسلوكيات أصابت الشاعر بالحزن والإحباط مع الاحتكاك المباشر بعادات وقيم أخرى لمجتمع آخر مغاير تماماً لمجتمع الشاعر إنها مقارنة شخصية ذاتية على مستوى العادة والسلوك، ولكنها قابلة للكشف عن رافد مهم قادر على تغذية الشعور بالاغتراب النفسي ، وإمداده بأسباب البقاء والوجود.

يدل على ذلك تكرار الشاعر لسطر شعرى كامل فى صورة تقريرية واضحة: «درس عرفته روحى بعد فوات الأزمان». إنه قمة الإحباط واليأس . إذ ما الذى سيستدركه هذا الشاعر؟ وما الذى بإمكانه أن يفعله «بعد فوات الأزمان»؟

ياله من معن قاهر يستطيع بصورة تلقائية استثارة مشاعر أحاسيس الاغتراب والتمزق!

(١) الأعمال الكاملة – صلاح عبد الصبور – حياتى فى الشعر – الدواوين الشعرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣- ص٥٩٠، ٥٩١.

الفصل الرابع : الوجه الصادم للعودة

رأى عدد من الشعراء المصريين – في المحاور السابقة- أن مصر قد قست عليهم، وبالغت في قسوتها، فأحبطت طموحاتهم فيها؛ مما اضطرهم إلى الرحيل عنها إلى مجتمعات الغربة التي وجهت إليهم لطمات نفسية صادمة أعاقت عملية إشباع هؤلاء الشعراء عدداً من الاحتياجات الإنسانية والشخصية الملحة عن طريق ما فرضته حياة الغربة قسراً على الشاعر المغترب. وقد بدا أثر هذه الإعاقة واضحاً في نفوس هؤلاء الشعراء، وفيما خلفوه في أتونها من أشعار شهدت على ما استكن في قلوبهم من مشاعر الاغتراب النفسي التي بدت في أشعارهم، وتميزت بها قصائدهم. وهي أشعار كانت تشكو في مجملها المشكلات والمعاناه التي تعرض لها أصحابها في مجتمعات الغربة، وما ترتب عليها من مشاعر الندم على القيام بهذا الرحيل، ومن ثم تمني العودة إلى مصر .

وهنا يطل برأسه محور جديد من محاور الاغتراب النفسي التي تعرض لها هؤلاء الشعراء. وهو الصدمة النفسية المزلزلة التي تمخضت عن حقيقة حتمية هي أن عدداً من هؤلاء الشعراء الذين طال غيابهم لسنوات عن وطنهم الذي تركوه تحت ضغوط أو أطماع أو رغبات اختلفت تبعاً لحالة كل شاعر وظروفه الشخصية – قد عادوا إلى هذا الوطن؛ ليجدوا كل شيء فيه قد تغير عما كان عليه من قبل، عندما رحلوا عنه وتركوه فلا هم استطاعوا أن يتكيفوا مع عالم الغربة، ولا هم وجدوا عالمهم الأصلي الذي رحلوا عنه قد بقي على حاله عندما عادوا إليه. ومن هنا وجد الشعور بالإحباط إلى نفوسهم سبيلاً ومرتعاً خصباً غذى جذوره رغبة ملحة من الشاعر في العودة ثم خيبة الأمل الذي مني الشاعر نفسه به من تلك العودة .

فهاهو ذا الشاعر (أحمد عبد المعطي حجازي) الذي عاد من منفاه بباريس «لما تحررت المدينة» – على حد تعبير الشاعر – بعد طول غياب عن مصر؛ ليحيي في رحابها شعوره بالانتماء والتواصل، وليتخلص من آثار الوحدة القاسية التي عاناها في مجتمع الغربة؛ وذلك بالارتماء بين أحضان وطنه الذي نشأ به، وتربى فيه، وفيه يوجد الأهل والخلان الذين سيؤنسون بالطبع وحدته، وسيمسحون عنه عناء ما لاقاه في الغربة من وحدة وتشتت، ولكن النتيجة جاءت مخيبة لآماله:

«لما تحررت المدينة عدت من
منفاي،
أبحث في وجوه الناس عن
صحبي،
فلم أعثر على أحد،
وأدركني الكلال
فسألت عن أهلي، وعن دار لنا
فاستغرب الناس السؤال

وسألت عن شجر قديم
كان يكتنف الطريق إلى التلال
فاستغرب الناس السؤال
وبحثت عن نهر المدينة دون جدوى،
وانتبهت إلى رماد نازل
من جمرة الشمس التى كانت تميل إلى الزوال»[١].

عاد الشاعر إلى وطنه ليجد كل شىء قد تغير ابتداءً بالعنصر البشرى المتمثل فى (الصحب والأهل) ومروراً بالطبيعى الجامد المتمثل فى (الشجر والدار) وانتهاءً بالطبيعى المتحرك المتمثل فى (نهر المدينة) وفى (الرماد النازل والشمس التى مالت إلى الزوال)؛ فقد جدت تغيرات هائلة ولدها هذا الفراغ الزمنى والابتعاد المكانى اللذان مثلا فجوة باعدت كثيراً بين هذا الشاعر، وبين مواكبته لما طرأ على مجتمعه من تغيرات هائلة امتدت آثارها حتى شملت أيضاً لهجة أهل مدينته الذين نسوا لغتهم الأصلية، وراحوا يتحدثون «بلكنة عجماء»:

«وفزعت حين رأيت أهل مدينتى
يتحدثون بلكنة عجماء متجهين نحوى،
فابتعدت،
وهم أمامى يتبعون تراجعى بخطى ثقال
حتى خرجت من المدينة مثقلاً بحقائبى
وانهرت مثل عمود ملح
فى الرمال»[٢].

إن تلك «اللقطة السابقة تمثل «ترافلنج* إلى الخلف» يتابع حركة تراجع «أنا الشاعر»- الذى لا يظهر منه فى الصورة سوى ظهره- أمام أهل المدينة الذين يتقدمون فى مواجهته لإجباره على هذا التقهقر. ولاشك فى أن تثبيت زاوية التصوير – السينمائى والشعرى – التى يظهر من خلالها وجوه أهل المدينة وظهر الشاعر، يعطى إحساساً عميقاً بتأكيد عدائهم الشديد له وفزعه الرهيب منهم»[٣].

وهكذا يختتم الشاعر قصيدته بتلك الصورة الطريفة التى عكست مدى أحساسه بالأسي والحزن الذى منى به، وسيطر على نفسه، فأسلمه إلى الهروب والابتعاد بعد أن خاب رجاؤه فى وطنه، عندما لم يحصل فيه على الشعور بالانتماء والتواصل الذى عاد من غربته وهو فى أمس الحاجة إليه .

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر أحمد عبد المعطى حجازى – ص٥٨١، ٥٨٢ .
(٢) السابق – ص٥٨٢ .
*** الترافلنج في لغة السينما تعنى ببساطة تثبيت زاوية التصوير وتحرك المصور – أشكال التناص الشعرى – أحمد مجاهد – ص٢١١ .**
(٣) أشكال التناص الشعرى – دراسة فى توظيف الشخصيات التراثية – أحمد مجاهد – الهيئة المصرية العامة للكتاب- ٢٠٠٦ ص٢١١، ٢١٢ .

وإذا كان الشـــاعر (أحمد عبد المعطى حجازى) قد اختزل جميع التغيرات الهائلة التى طرأت على مجتمعه فى صورة المدينة التي عاد إليها، فوجدها قد تغيرت تماماً، فكذلك كان الحال مع د(عبده بدوى) الذى كان أكثر ارتباطاً بنشأته الأولى؛ حيث تخير صـورة القرية ليقوم من خلالها برصـد التغيرات الهائلة التى طرأت عليها في أثناء غربته، ولكن الشـاعر لاينسـى بالطبع في إطار ذلك أن يشـير إلى المكابدات التي تحملها في هجرته، وأنه قد آن له أن يستفيء إلى ظل وطنه؛ ليطفئ فيه نار شوقه وحبه الجارف له :

«من بعد سـنين موحشـة — حنت أيامى للخضره
فلقد أحسسـت بأيامى — تتطاير عنى فى حسره
وبأن البسـمة فى شـفتى — عرفت طرقات للهجره
وببطء سـرت لقريتنا — وحلمت بحب يغمرنى
قد كدت – ولم تنقل قدمى - — أن يورق حقل فى بدنى
فجريت أسـابق أشـواقى — وأرى أشـواقى تسـبقنى»[1]

ولكن عودة الشـاعر تلك وضـعت يده على تغيرات جذرية أشـعلت فيه مشاعر الأسى والحزن، وشكلت بداخله غربة داخلية مضنية أحسها الشاعر، واسـتولت عليه بعد أن رأى معالم مفرداتها تنمو وتسـتطيل وتتوحش بداخله كلما انتقل بصـره من مشـهد إلى مشـهد آخر أقسـى منه، وكلما ووجه بتنكر الجميع له:

«فى العودة شـاهدت مطاراً — وطيور ليسـت فيها الروح
ورأيت المخفر طالعنى — والشـرطة تغدو وتروح
وأصـخت لناى مطرود — تحت الصـفصـاف المجروح!
وببطء داهمنى حزن — وسـقانى موال كربه
فالخضـرة كانت غائبة — عن أرض موحشـة التربه
والطير يقول بلا صـوت — من هذا العائد من غربة؟
لما قالوا: عدت أخيراً؟ — ومصـير الغائب أن يأتى
لم أعرف شـارعنا المفضـى — للبيت ولم أعرف بيتى
وشـعرت – وقد غابت عنى — أسـماء لذاتى – بالموت
فالملعب قد أضحى «مقهى — والحقل «وكالة أنباء»
والبنت وقد كانت عمرى — عبرت من غير اسـتحياء
وذوو القربى شـغلوا عنى — بالشـاشـة بين الأضـواء[2]

إنه إذن الشـعور بالاغتراب النفسـي يتجلى فى أوضـح صـوره لدى هذا الشاعر الذى عاد بعد سنوات الغربة والوحشة إلى قريته؛ بغية الحصول على الأنس والتواصل، ولكن خاب مسعاه، وتبددت آماله فى هذا المجتمع القروى الذى فقد براءته الفطرية الساذجة وتمسك بأسباب التحضر والتمدن، فخسر بذلك كثيراً من معاني التواصـل والتودد والتعارف، وهي معان ظن هذا الشاعر المغترب إمكانية تحقيقها في هذا المجتمع القروي، ولكنه فوجئ بتغير معالم هذا المجتمع، وبتغير سلوكيات أفراده. فكان من الطبعي أن ينتابه شعور بالضـيق والنفور من هذا المجتمع الذى تغير تغيراً جذرياً، حتى إنه لم يتعرف على الشاعر الذى نشأ وتربى فى ربوعه.

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى – ٣/ ٩١.
(٢) السابق – ص٩٢.

والشـــاعر العائد من غربة لم يتمكن بدوره من التعرف على ملامح هذا المجتمع الجديد، وقد وصـل هذا التنكر المتبادل إلى الحد الذى جعل الشـاعر يعتبر عودته تلك لم تكن عودة إلى موطنه الأصلى بقدر ما كانت هجرة منه:

«أتـرى قـدرى أبـقـى أبـداً — مكســور الخطوة والخـاطر
وأعـيـش بـعـمـر مـفـقـود — مـا بـين الآتـى والحـاضـر
مـا أشــقى من قـالوا عنـه: — مـا عـاد ولكن قـد هـاجر»[1]

وإذا كان الشاعر فى قصيدته السابقة قد نعى عند عودته إلى قريته ما رآه بادياً على صفحتها من طغيان المادية، وانعدام المؤانسة والتواصل، وأحزنه ما وجده فيها من تنكر وتجهم فى وجهه – فإنه فى قصـيدة أخرى يؤكد هذاالشـعور بالاغتراب النفسـي الذى جره عليه هذا التنكر الرافض لعودته، والذى سيدفعه إلى هذا الرحيل المضنى من جديد:

«رفرفت كالطير مهموماً على بلدى — وعدت أصغى لصوت قال: يا ولدي
فقـد ظللـت بـعيـداً لـم تـفـارقنـى — أفراح مصر ولا إشراقها الأبدى»[2]
«وقيـل «عود» فعدنـا فى جحافنـا — مسـتكرهين بلا مـال ولا سـنـد*
«لكن عش الهوى قـد راح ينكرنى — ومن يود بـأنى كنـت قـد لم أعـد
ومن تربى بفكرى، لا يفـارقنـى — قد صـار إما يرانى طالعاً.. يحد
فالجذر أنكرنى، والغصـن خاصمنى — وقيل ما ظل فى روحي وفى خلدى
«هـاجرت والشـمس فوق الأرض مشـــــرقـــــة — وعدت والليل يمشى مشى مضطهد
فلـيس لـلوافـد الآتـى لـدوحتـنـا — شـىء من الظل، أو شـىء من الرغد
الماء من حق من عاشـوا بضـفته — فارجع عن الماء- يا هذا- ولا ترد»[3]

كما يتكرر أيضـاً هذا الوجه الصـادم للعودة فى قصـيدة الشـاعر (الرحيل والعودة والضياع) التى افتتحها بقوله:

«رفرفرت كالطير مشتاقاً على بلدى — ومـال منى جنـاح غير مرتعـد
فقد رحلت طويلاً.. غير أن شـذى — فى غربـة العمر. يسـتبقى إلى الأبد»[4]

وأنهاها بنهاية هى غاية الشعور بالفقد والضياع :

-«لكن عش الهوى لم يبق نـافـذة — تهدى بشـمع على الشـباك متقد
ولا تبسـم فى وجهى، ولا ضحكت — تفـاحتـان ببسـتـان من الرغـد
وكاد الشـوق يطوينى وينشـرنى — بأن يصـرح: لا تقرب، بل ابتعد!
فقلت: أرحل مهما كان من شـغفى — بمن عشـقت، وما قد عاش فى خـلـدى
ورحـت أرحـل.. لا قلبى بمرتعش — عند الوداع، ولا كفى على كبدى!
لكننى والمدى أضـحى يجرجرنى — إلى المنافى حزينا، واهن العضـد
وجدت أن وجودى ضاع من أسف — وأنه لم يعد فى الأرض من أحد!»

---

(١) المصدر السابق – ص٩٣ .
(٢) المصدر السابق- ص٧٩ .
* هذا البيت إشارة إلى المشاق التى تحملها الشاعر فى أثناء عودته من الكويت إلى مصر إبان الغزو العراقى للكويت .
(٣) السابق – ص٨٠ .
(٤) السابق – ص٧٧ .

إنها إذن عودة صـادمة لكل حواس الشـاعر الذى لم يجد أمامه إلا أن يسـلم نفسه للنفى والضياع من جديد .

وعلى ما يبدو تكرار الشاعر لملامح هذا التنكر من الوطن، وضيقه بعودته كان له ما يبرره ويؤكده فى واقع هذا الشـاعر من أسـباب موضـوعية؛ فهو لم يقابل بالترحيب والتقبل عند عودته إلى وطنه ولكن قوبل بكل قســوة وتنكيل وقمع:

«كان يوم العود – يا أماه – مفزع
لم أعد أعرف ذاتى
وهى ترمى، وهى تقطع!
أخذوا منى ذراعى
حسبوه بعض أسطر
نزعوا قلبى المدمى
سرقوا شوقى المبعثر
طوحوا عقلى بعيداً
ثم قالوا: يتجمهر
قطعوا غدر لسانى
ليكون الصمت بالمظلوم أجدر
.. ثم قالوا – بابتسام يتوعد
ووعود تتهدد-
«إن هذا العود أحمد!!»[(1)].

إنها صــدمة عنيفة لم يكن يتوقع الشــاعر مطلقاً أن تحصــل. لذلك قامت علامة التعجب فى آخر القصــيدة بدورها فى إضــفاء تلك النزعة الســاخرة الحزينة فى آن معاً:

«فإلى أى طريق سوف أمضى يا بلادى
«يا بلادى. يا بلادى
لك حبى وفؤادى
وعلى كل العباد
كم لنيلك من أيادى!»[(2)].

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى – ٢/ ٣٥١، ٣٥٢ .
(٢) السابق ص٣٥٣ .

إنها إذن عودة مخيبة حيث لم يحصـــل على ما افتقده في الغربة من الود والأنس، ولم يلق الذى كان يؤمله؛ فقد ظل يعانى بعد عودته لمصر من الوحدة والقسوة والتنكر والتجاهل.

بل إن الأمر قد وصـــل بهذا الوطن إلي حد الشـــماتة بهؤلاء العائدين الذين كانت أحوالهم الاجتماعية قد دفعتهم إلي الرحيل عن مصـــر ثم كانت الأحداث السياسية – ممثلة في اجتياح العراق للكويت – قد اضطرتهم إلى العودة إلى مصر؛ لينعموا فيها بالترحيب والتعاطف والراحة والسكينة. لكن مصر لاقتهم بالصـــدود والتجاهل والشـــماتة، مما دفع الشـــاعر إلى أن يواجه مصـــر بهذه التســـاؤلات المرة التى تشـــف عما يجول بخاطره من شـــعور حاد بالتمزق والاغتراب النفسي :

«لم لم تمدى الكف فى فرح بنا؟	**لم لم نجد تربيته الآباء ؟**
لم لا نرى لصدورنا صدراً حفياً	**يانعاً متجاوب الأصـــداء؟**
لم لا نجد إلا الشـــماتة عبرت	**عن نفســـها بالنظرة الحولاء؟**
إن لم تكونى العش يحنو حولنا	**فلمن ســـتخفق لهفة الغرباء؟»[١]**

وفى هذا المعنى يلتقى الشـــاعر (فاروق شـــوشـــة) مع الشـــاعر د/ (عبده بدوى)؛ حيث نجده يعبر عن صورة التنكر والتجهم التى يقابل بها وطنه أولئك العائدين إليه من الغربة. ويلاحظ أن الشـــاعر قد اعتمد رؤية أكثر شـــمولاً، وأوسع نطاقاً فى رصد أهم الأوجه الصادمة لتلك العودة. وذلك عندما وجدناه لا يعتد كثيراً بضـــمير المتكلم بينما لجأ بصـــورة ملحوظة إلي ضـــمير الغائب (الجمع) الذى نفذ من خلاله إلى تحقيق المشاركة الوجدانية التى تفترض بداية إحساس الشـــاعر، وتوحده مع هؤلاء الذين دفعهم الشوق والحنين إلى العودة إلى الوطن؛ ليواجهوا بتجاهله لهم، وعدم اكتراثه بعودتهم تلك:

«على جناح الصيف يرجعون

تلقى بهم مدائن الغربة والعراء والحنين

فى مفارق الطرق

مغلولة أيديهمو إلى خزائن الأشواق

مشدودة عيونهم إلى حقائب السفر

مدموغة وجوههم بوشم عام محترق

تساقطت أيامه فى هوة الزمن

مشرعة آذانهم إلى نداء بالرحيل

وحظوهم يسوخ فى عبء الأسى الثقيل

وفى العيون بعض ما تخلف الصحراء من غبار

وفى الحلوق بعض ما استقر من أسن»[٢].

---

(١) الأعمال الكاملة للشاعر عبده بدوى – ٣/ ٧٦ .
(٢) الأعمال الشعرية – فاروق شوشة ٤٥٣/١، ٤٥٤ .

صدر الشاعر قصيدته برصد المعاناة القاسية التى يتجشمها هؤلاء العائدون فى طريق عودتهم إلى هذا الوطن الذى يمنون أنفسهم فى رحابه بكل أسباب التواصل والانتماء، وهو ما سيؤهله ليكون رمزاً يحقق لهؤلاء العائدين فرصة الحصول على الترحيب والحنو اللازمين من تلك العودة. وهو ما سيمكنهم من أن يطفئوا بين أحضانه أشواقهم الجارفة التى حملوها معهم فى طريق عودتهم إليه .

هكذا ظن هؤلاء العائدون، ولكن هل حقاً تحقق لهم ما أرادوه؟

الحق أن ذلك لم يحدث مطلقاً فما أن يتصدر الوطن صورة المشهد حتى تتبخر تلك الأمنيات والرغبات، وتتحطم مع أول مواجهة لهم مع هذا الوطن الذى قابلهم بالتجاهل وعدم المبالاة، وهنا يتحول الشاعر إلى مخاطبة هذا الوطن المحبط:

« ها أنت فى وقفتك المرسومة المراوغه

لا تحتفى بهم،

ولا تصدهم..

تجمعوا أمام بابك الوحيد ذاهلين

وانفرجت شفاههم عن دهشة ونقمه

هل أخطأوا حين أتوا؟

لا يعرفون

لكنهم برغم صمتك الثقيل يحشرون

تموج فى عيونهم دوائر الحنين»[(١)].

«إن المسافرين يلقون من الوطن المراوغة واللامبالاة، ومع هذا، فإنهم، لا يملكون إلا طاعة سيف الحنين الذى يسوقهم جميعاً إلى أحضان هذا الوطن مرغمين»[(٢)].

ورصد الشاعر للأوجه الصادمة لهؤلاء العائدين إلى وطنهم لم تتوقف عند حد التجاهل واللامبالاة؛ فقد راح يرصد أيضاً التغيرات الهائلة التى طرأت على هذا الوطن؛ فهو لم يعد حانياً عليهم، أو جامعاً لشملهم، كما أنه لم يعد حافلاً بالخير كما كان فى عهد الآباء:

«ولست حانيا

كما توقع الغياب حين يرجعون

أو حافلاً بالخير،

مثلما تعود الآباء

حين كانوا يغرفون من عطائك الميمون»[(٣)].

---

(١) المرجع السابق ــ ص٤٥٤، ٤٥٥ .
(٢) البنية الشعرية عند فاروق شوشة د. مصطفى عبد الغنى ص٣٤ .
(٣) الأعمال الشعرية ــ فاروق شوشة ــ ص٤٥٥ .

هكذا رجع هؤلاء العائدون إلى أرض الوطن ليجدوا كل شىء فيه قد تغير عما كان عليه فى الماضى، لذا كانت عودتهم مخيبة لآمالهم، ومثيرة لمشاعر الاغتراب النفسي لديهم. لذلك كانت النتيجة حتمية ومنطقية، فلم يعد هؤلاء العائدون يهتفون أو يغنون لهذا الوطن إلا ويلحقهم التحرج والاستحياء فى قرارة نفوسهم. وهو ما يمثل قمة الإحباط من تلك العودة. ومن ثم راح هؤلاء العائدون يتحايلون على هذا الشعور، ويحاولون أن يتخلصوا من قسوة وقعه عليهم بعد أن عجزوا عن مواجهته أو التغلب عليه، فلجؤوا إلى تلك الحيلة الهروبية المتمثلة فى قولهم: «تغير الزمن»:

«قد لا تكون أى شىء بعد، يرتجون

فقد تشققت حلوقهم، ولم يعودوا يهتفون

وانسحقت أحلامهم تحت خيول الظلمه

وأصبحوا،

حين يغنون وحين ينشجون

يستحون

وإن أفاقوا مرة وجربوا يفسرون

قالوا: تغير الزمن»[1].

كذلك كان الشاعر (عبد المنعم عواد يوسف) على موعد مع هذا الوجه الصادم للعودة ، ويلاحظ أن هذا الشاعر كان أكثر التصاقاً بذاته، وأقرب إلى معاناته الشخصية؛ فقد رأى أن غربته عن مصر قد طالت، وأنه قد آن الأوان لإشباع رغبته الملحة فى التواصل مع أصحابه وأحبابه، والأنس بهم. لذلك تعالت بداخله تلك الأصوات المرددة لضرورة العودة إلى مصر:

«ولما طالت الغربة

تناهت حيرتى فى مهمة الأيام، قلت أعود

لعلى أقطف الإيناس من بستان أصحابى

لعلى أشرب الراحة فى كاسات أحبابى»[2].

يلاحظ إصرار الشاعر على حرف الترجى (لعل) الذى يشى برغبة نفسية ملحة فى قرب حدوث ذلك، ويدعو إلى ضرورة تصديق حدوثه كذلك. وهو ما يمثل حيلة نفسية يستطيع الشاعر من خلالها تحقيق توازنه النفسى المنشود.

كما يلاحظ كذلك إضافة (الأصحاب) و(الأحباب) إلى ضمير المتكلم (المفرد)، وهو ما يومئ إلى مدى أهمية هؤلاء الأصحاب والأحباب، وارتباط الشاعر بهم نفسياً. ولكن: هل حقاً جنى الشاعر الإيناس من بستان أحبابه؟ وهل عثر أيضاً على الراحة فى كؤوس أحبابه؟

---

(١) السابق – ص٤٥٦ .
(٢) الأعمال الكاملة للشاعر عبد المنعم عواد يوسف- ٢٤٥/٢ .

الحق أنه كانت هناك مفاجأة صادمة بانتظاره عند عودته إلى مصر:

«ولما أن طرقت الباب.

تهادى الصوت. من بالباب

أجبت أنا

فعاد الصوت، لن نفتح عد من حيث قد جئتنا»[١].

إنها حقاً مفاجأة مخيبة لآمال الشـاعر التى منى نفسـه بتحقيقها من عودته إلى مصـر؛ فالشـاعر لم يجد الترحيب الذى تخيله ولم تحقق له تلك العودة ما كان يصـبو إليه من الأنس والراحة، فقد جوبه بالصـد والتنكر والدعوة الصـارمة له بضـرورة العودة من حيث أتى، وهى دعوة وجدت فى نفس هذا الشاعر المحبط صدى مراً:

«وهأنا عدت

أشرد فى دروب الغربة العمياء، لاخلان

أجرر لوعتى الخرساء

أحمل حيرة الإنسان»[٢].

وتتجسد قمة الشعور بالاغتراب النفسي التي وصل إليها هذا الشاعر عندما نجده يقع فريسة لهذا الندم ذا الإيقاع المرهق المر:

«أبعد التشرد عبر البقاع..

وبعد التغرب، بعد الضياع..

أعود إليهم..

إلى بيتنا..

فأشعر أنى غريب غريب؟!

وما من صديق، وما من حبيب..

فياليتنى لم أعد..

ليتنى لم أعد..

ليتنى لم أعد..»[٣].

إن صـدور مثل هذا التمنى المليء بنبرات اليأس والندم على تلك العودة يتناقض مع أمنيات سـابقة صـدرت عن هذا الشـاعر، وعن شـعراء مغتربين غيره كـان عنوانهـا المشـترك الأمل والرغبـة الملحـة فى العودة إلى أرض الوطن، وهذا بدوره يعكس هول الصـدمة التى تلقاها الشـاعر عند عودته إلى مصر .

(١) المرجع السابق ص٢٤٦ .
(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .
(٣) الأعمال الكاملة للشاعر عبد المنعم عواد يوسف ١/ ٥٧، ٥٨ .

كما أن تكرار الشاعر هذا التمني اليائس، وإلحاحه عليه يشف عما فى نفسه من شعور طاغ بالأسي والغربة النفسية جره عليه وأد أماله التى عقدها على تلك العودة الخائبة .

تعددت إذن محاور تلك الغربة المكانية، التي بدا واضحاً أنها أزجت بداخل الشاعر اغتراباً نفسياً رهيباً حمل في طياته كل أمارات الانشطار والتشظي التي تناثرت بداخل الشاعر المصري المعاصر ؛ بفعل تلك الغربة التي قُدِّر عليه ان يعانيها ويحمل ربقة تبعاتها الفادحة سنوات عديدة من عمره. ومن الواضح أن الشعور بالتمزق والاغتراب النفسي قد ظل على عنفه وحدّته على هذه المحاور كافة بعد أن بدا ثقل وطأته على نفوس هؤلاء الشعراء الذين عانوا حياة الغربة .

* * *

الفهرس